بيتر هاندكه

عن عاشق الفطر



ترجمة: د.علا عادل



مكتبة | ٩٧٤
سُر مَن قرأ

عن عاشق الفطر

بيتر هاندكه

د. علا عادل عبد الجواد/ أستاذ الأدب الألماني بكلية الألسن جامعة عين شمس، لها العديد من الترجمات من الألمانية وإليها، نشر لها مؤخرا ترجمة كتاب "ثقب الألواح الصلبة" لأكسندر كلوجه عن دار صفصافة، وقد شاركت في لجنة تحكيم جائزة المترجمين من الألمانية إلى العربية التي يمنحها معهد جوته، وأدارت كثير من ورش العمل ودورات المترجمة في المركز القومي للترجمة (مصر) ومعهد جوته والمنتدى الأدبي في برلين والمنتدى الثقافي النمساوي.

....

عن عاشق الفطر

طبعة 2021

رقم الإيـــــداع: 2021/14918

الترقيم الدولي: 978-977-821-209-9

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

This is full translation of the book "Versuch über den Pilznarren" by Peter Handke © Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1989.

Die Übersetzung dieses Werkes wurde durch das österreichische Bundesministerium für Kunst, Kultur, öffentlichen Dienst und Sport gefördert.

تم دعم ترجمة هذا العمل من قبل وزارة الثقافة والفنون والعمل العام والرياضة النمساوية.

Bundesministerium
Kunst, Kultur,
öffentlicher Dienst und Sport



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بيتر هاندكه

عن عاشق الفطر

مكتبة | ٩٧٤
سُر مَن قرأ

ترجمة

د. علا عادل

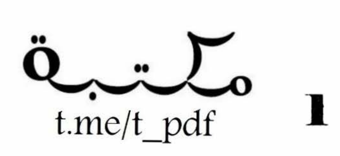


بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هاندكه، بيتر، ١٩٤٢-
عن عاشق الفطر / بيتر هاندكه، ترجمة: علا عادل
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
١٤٠ ص، ٢٠ سم
تدمك ٩-٩-٢٠٩-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- النجاح
أ- باحكيم، زهراء (مترجم)
ب- العنوان
١٣١,٣

رقم الإيداع: ١٤٩١٨/ ٢٠٢١



1

حكاية في حد ذاتها

«ها هي الأمور تتخذ طابع الجد مرة أخرى». هذا ما قلته لنفسي فجأة للتو قبل أن أمضي في طريقي إلى المقعد الذي أجلس عليه الآن بُغية الحصول على إيضاح مؤكد -أو حتى غير مؤكد- عن قصة صديقي المختفي.. عاشق الفطر. ثم قلت لنفسي فجأة ثانيةً: «لا يمكن أن يكون الوضع حقيقيًّا هكذا عندما أهتم وأستعد لكتابة شيء ما.. شيء لا يحمل في طياته أو حتى هو في حد ذاته يعبر عن حدث مهم على الإطلاق، إنها قصة جال بخاطري بشأنها في بداية المحاولة (كلمة مناسبة في موضعها) عنوان فيلم إيطالي يرجع إلى عشرات السنين يحمل اسم المخرج الإيطالي «أوجو توجنازي» «تراجيديا رجل مضحك» (Die Tragödie eines lächerlichen Mannes) ليس الفيلم في حد ذاته بل هذا العنوان فحسب.

علاوة على أنها قصة عن صديق قديم وليست عن تراجيديا. أما السؤال عما إذا كان ثمة شخص مضحك أو هناك بالفعل هذا

الشخص، فهذا ليس واضحًا لي ولن يتضح لي أبدًا وها أنا أقول ثانية فجأة وأكتب: «ليت الأمر يبقى على هذه الشاكلة!».

قبل أن أتوجه إلى طاولة المكتب الموجود هنا جال بخاطري فيلم آخر. لم يكن عنوان الفيلم ما جال ببالي حقًّا بل أحد مشاهده الأولى، إن لم يكن مشهد البداية. كان الأمر يتعلق بأحد أفلام الغرب الأمريكي -مرة أخرى- وبطله -فلنُخمّن- إنه «جون فورد[1]»، حيث «جيمس ستيورات[2]» الذي تبدأ به الأحداث وهو يلعب دور رئيس الشرطة الشهير «وايت إرب».. ألا يبدو على غرار مغامرات «تومبستون الأسطورية».. غارقًا في الأحلام مثل «جيمس ستيورات» وهو يجلس في شرفة مكتبه في شمس تكساس الجنوبية ويبدو مسالمًا وحاسمًا أمره أسفل حافة قبعته المسدل نصفها فوق عينيه.. ولا يسمح بمرور شيء سوى الوقت.. هيئة يُحسد عليها وفي الوقت نفسه مُعدية. ثم بداية مغامرة جديدة -وإلا لما كانت حكاية من الغرب البري- في البداية على مضض. هل أتذكر جيدًا؟ كان منجذبًا للذهب، ثم التوجه للشمال أكثر من الغرب. لكن فيما يلي وخاصة في نهاية القصة، حدث التدخل البديهي والانتباه الناعم والحضور الذهني المساعد بهدوء، الذي

1- مخرج سينمائي أمريكي من أصل أيرلندي، اشتهر بإخراجه لأفلام الغرب الأمريكي، حطم الأرقام القياسية بحصوله على أربع جوائز أوسكار. (الناشر)

2- ممثل أمريكي اشتهر بصوته المميز، رشح لخمس جوائز أوسكار، وفاز بها عام 1940 عن فيلم قصة فيلادلفيا. (الناشر)

كان يشع دومًا من «جيمس ستيوارت» ولا يزال. ليس فقط "اثنان ركبا الخيل معًا" Two Rode Together، حسب عنوان الفيلم، حيث كان البطل الثاني هو «ريتشارد وايدمارك[3]»، إذ امتطى في النهاية أناس كثيرون الخيل معًا.. كثيرون إن لم يكن الجميع (تقريبًا). لماذا استحضرت للتو بداية هذا الفيلم قبل أن أشرع للذهاب إلى طاولة المكتب؟ صورة رئيس الشرطة بساقين ممدودتين مرتديًا حذاء برقبة.. ساكنًا.. كسولًا للغاية.. رجل يطلق عليه بالتأكيد حامي النظام يكشف عن ضحكة تبعث على الطمأنينة.

جلست أنا أيضًا وقد مددت ساقي منتعلًا حذاء البوت. لكن لم أكن في شرفة وبالتأكيد لم أكن في أعماق الجنوب، بل في الشمال الكئيب بعيدًا عن الشمس، حيث أمد ساقي على حافة النافذة داخل منزل يعود عمره إلى مئات السنين بأسوار بسمك متر تقريبًا، وتتصاعد في الخارج أبخرة مطر نهاية الخريف وتهب رياح باردة قادمة من غابات أشجار الزان غير الكثيفة الموجودة فوق الهضبة لتتسلل عبر فتحات الألواح.. كان البوت من المطاط ومن دونه لم يكن السير ممكنًا عبر الحقول أو الغابة. خلعت هذا البوت عندما شرعت في التوجه إلى طاولة المكتب.. خلعته في

3- ممثل أمريكي ومنتج تلفزيوني. اشتهر بتقديم أدوار الشر ورشح لجائزة أوسكار عن فيلم قبلة الموت عام 1948. (الناشر)

الخارج أمام باب المنزل بالشيء الذي كان يطلق عليه ذات يوم اسم «خالع البوت» وفي حالتي كان عبارة عن شيء عتيق من الحديد الثقيل على شكل حلزون ضخم كانت قرون استشعاره تنزع عني البوت من الكعبين وترفعه. خطوت بضع خطوات وولجت من الباب التالي إلى البناء الملحق –القشرة الداخلية– «الملحق» كما أسميه، ثم إلى طاولة الكتابة.

كيف هذا؟ تلك الخطوات القليلة إلى الخارج والداخل وصولاً إلى الجلوس عند طاولة المكتب تُسمّى «طريق»؟ «المضي إلى طريق»؟ «انطلاق»؟.. هذا ما جال بخاطري، هذا ما عايشته، هذا ما كان. في غضون ذلك حل ظلام شهر نوفمبر المعتاد أسفل في السهل الممتد من سفح الهضبة التي أجلس على حافتها السامقة إلى الآفاق الرحبة المتجهة صوب الشمال، وكان المصباح الموضوع على الطاولة مضيئًا. "لا بدَّ أن الأمر يتسم بالجدية".

كان صديقي عاشقًا للفطر منذ وقت طويل للغاية، حتى وإن كان بمفهوم آخر عن أعوامه اللاحقة أو المتأخرة. لم ترد عنه حكاية بوصفه مهووسًا وتلفت الانتباه إلا مع بلوغه الكِبر. لِمَ يُكتب عدد قليل عن حكايات عُشاق الفطر بصفة عامة أو حتى بشكل استثنائي؟ عن الحمقى شخصيًّا الذين يتحدثون عن أنفسهم بوصفهم «صيادين» أو باحثين وجامعين ومكتشفين للطبيعة.

والثابت هو أنه لا يوجد فقط مراجع عن الفطر وكتب، بل هناك كذلك أعمال أدبية يحكي فيها أحد أنواع الفطر في سياق مرتبط بوجوده، ربما لم تظهر تلك المصادر إلا في العصر الأحدث أو بوجه عام بعد مرور الحربين العالميتين في القرن الماضي. لم تلعب أنواع الفطر دورًا يُذكر في أي كتاب في الأدب العالمي في القرن التاسع عشر تقريبًا، وإن حدث فإن دورها كان صغيرًا يمر مرور الكرام ودون علاقة بالبطل أيما كان، حيث كانت موجودة لذاتها مثلما الحال لدى الكاتبين الروسيين دوستويفسكي وتشيخوف.

أتذكر قصة وحيدة تحكي عن شخص تورط في عالم الفطر -حتى وإن كان لفصل واحد- دون أن تكون له يد في ذلك، نعم على غير إرادته، وهذا ما حدث في رواية «Far from the Madding Crowd» (بعيدًا عن الصخب المجنون) للكاتب «توماس هاردي[4]» -في إنجلترا أواخر القرن التاسع عشر- عن بطلة جميلة ضلت طريقها ليلاً في الريف وانزلقت في حفرة مليئة بأنواع عملاقة من الفطر، وظلت عالقة هناك في حفرة الفطر حتى مطلع الفجر محاطة بهذه التشكيلات المخيفة التي يبدو أنها كانت تنمو وتتكاثر بشكل ملحوظ (هذا حسب ما أتذكر).

4- روائي وشاعر إنجليزي. وكاتب واقعي من العصر الفيكتوري. تأثر كثيرًا بتشارلز ديكنز. ولد عام 1840 وتوفي في 1928. (الناشر)

والآن لنعد إلى الزمن الجديد، أو ماذا نسميه؟ «زمننا» حيث يبدو أن الأعمال الروائية تتراكم بشكل ملحوظ، لا سيما تلك التي يزداد فيها ظهور أنواع الفطر في دور كائنات مخيفة في العالم سواء كأدوات للقتل أو وسائل... كيف أقولها؟ وسائل «لتوسيع الإدراك».

لا أنوي أن أسرد في «حكاية عاشق الفطر» أي شيء من هذا.. ليس عن عاشق الفطر كبطل أو حالم بالجريمة الكاملة أو رائد لوعي الأنا الآخر، أو ربما في البداية.. مَن يعرف؟ سواء هذه أو تلك.. قصة مثل قصته كيف حدثت وكيف عايشتها في فترة ما عن قرب شديد لم تُكتَب على الإطلاق من قبل.

بدأت الحكاية بالمال قبل وقت طويل عندما كان الذي سيصبح عاشقًا للفطر لا يزال طفلًا صغيرًا.. بدأت بالمال الذي كان الطفل آنذاك في حاجة إليه حتى وهو نائم حيث كانت العملات المعدنية تلمع طوال الليل بكل السبل، ليتبين بعد ذلك أنها لم تكن مالًا، وبدأ بالمال الذي لم يملكه في الليل أو النهار كالمعتاد. وحقيقة أنه كان ينظر إلى الأرض في أسى وحزن طوال اليوم وأينما ذهب أو وقف لم يكن لها تفسير سوى أنه كان يحدق نحو قدميه بحثًا عن شيء له قيمة.. عن كنز مفقود. لماذا إذًا لم يكن لديه مال، حيث لم يكن في حوزته في أي وقت سوى أصغر عُملة معدنية لا يستطيع أن يصنع بها شيئًا، أي شيء على الإطلاق، حتى لم يكن

لديه أي قطعة نقود في المنزل ولا حتى ورقة نقدية صغيرة.. ليس لهذا صلة بموضوعنا. كيف تمكن إذًا من أن يحصل على المال؟ حيث لم يكن يومًا جشعًا أو طامعًا في امتلاكه. إذا امتلك المال يومًا فربما يشرع على الفور في إنفاقه، وكان يعرف بالفعل منذ وقت طويل حقًّا أين ومن أجل ماذا سينفقه.

حدث أن تم تأسيس «مستودع لجمع الفطر» بالقرب من القرية التي نشأ بها. كان هذا في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية حيث انتعشت التجارة والأسواق بوجه عام بطريقة جديدة.. طريقة مختلفة مقارنة بزمن ما بين الحربين خاصة التجارة والتبادل بين المناطق الريفية والمدن الأكبر التي شب قاطنوها على تناول مأكولات غير مستساغة على الإطلاق (ليس فقط المستوردة من المناطق الاستوائية أو غيرها) وعلى وجه الخصوص تجارة أنواع الفطر البري المختلف عن «فطر الشامبنيون(5)» الذي لم يكن يزرع في السراديب أو ممرات الجبال، بل الأنواع البرية التي يجب البحث عنها.. الأمر الذي ساهم في تذوق شيء نادر في المدن على الأقل.. طعام شهي حلو المذاق.

في ذاك المستودع لجمع الفطر كان من الممكن تسليم كل الأنواع المكتشفة من المنطقة بالكامل التي تقع في الغابات

5- فطر فرنسي ويعد من أكثر أنواع الفطر انتشارًا حول العالم، ويحتاج لزراعته إلى ظروف مناخية معينة متعلقة بدرجة الحرارة والرطوبة. (الناشر)

تقريبًا مقابل مبلغ من المال، ومنه ينقل الفطر المكدس في عربة إلى المدينة، كان ذاك هو المستودع الجامع الذي يطرب له الطفل الساعي إلى المال في زمنه. لم يشق عاشق الفطر اللاحق طريقه إلى الطبيعة لشيء مجد من قبل. غير مُجدٍ على الإطلاق. لم يكن هناك بوجه عام سوى الحفيف والهدر والصفير.. ربما لم يكن سوى همس الأشجار، ولهذا تحديدًا لم يتسلل إلى الغابات أو إلى أي مكان آخر بل كان يجلس القرفصاء على حافة الغابة، حيث اعتاد جلسة القرفصاء والبقاء مستندًا بظهره إلى الأشجار ولا شيء أمامه سوى الأرض الخاوية.

سار في طريق، من حواف الغابات إلى الأعماق ثم إلى أعمق الأماكن بداخلها لأسباب متعلقة بالمال. كانت الأشجار الموجودة في منطقة طفولته صنوبرية وفوق كل هذا وخاصة جزر أشجار التنوب الأكثر نورًا تقع أعلى في المناطق الجبلية، أشجار الراتنج ذات الرداء الإبري الكثيف للغاية حيث كانت تنمو هذه الأشجار بعضها بجوار بعض، الأفرع والغصون متشابكة ومتضافرة ويصبح المكان مظلمًا بل وأكثر ظلمة عند الغوص بين أشجار الراتنج المشتابكة لدرجه أنه مع الوقت لم تعد الأشجار الفرادى أو الغابة بأكملها واضحة وكان داخل الغابة أكثر ظلمة، وبمثابة المتاهة التي سرعان ما تضطر أي إنسان للتوقف على الفور بعد بضع خطوات بعيدًا عن الحواف.. رؤية لم تعد واضحة بين جذوع الأشجار بأفرع سفلية ميتة في الغالب وخروجًا إلى العراء

المحيط بها إلى ضوء النهار المشع على الأرض الواسعة كضوء مثل ضوء الفجر العميق..

بدلًا من ذلك ظهر شكل من أشكال الضوء من موضع ما كان من المفترض أن يكون موجودًا على أرض الغابة.. مختفيًا نصفه أحيانًا داخل الطحالب. كلما ازداد تقدم الطفل في الغابات المعتمة زاد شعوره بذلك الضوء حتى قبل أن يعثر علي أي شيء.. نعم، حدث له ذلك قبل وقت طويل.. وبشكل متكرر حتى وإن لم تظهر أماكن الاكتشاف.. كان مهووسًا حقًّا بالنور الكامن داخل الطحالب.

تُرى أي نوع من الضوء كان هذا؟ لمعان. ثمة ضوء غرفة الكنز يلمع من أسفل أجمة الحطام الخشبي الجاف ذات اللون الرمادي الباهت وطحالب الأشنيات[6]. كيف هذا؟ أكوام صغيرة من الفطر الأصفر التي تلألأت فيما بعد بشكل مفعم بالحياة وقفزت داخل عينيه فأعمته حرفيًّا من النظرة الأولى في الظلام.. تُرى أهذا كنز؟ كنز.. شيء ستحصل على مال نظير بيعه في مستودع الفطر، ستحصل على ورقتين نقديتين صغيرتين على أحسن تقدير. لكن بوجه عام ليس على حفنة من العملات المتوسطة اللامعة، بغض

6- هي كائنات تعايشية تتكون من ترافق بين الطحالب الخضراء المجهرية وفطريات خيطية في علاقة تكافلية: حيث يقوم الطحلب بالبناء الضوئي ويقوم الفطر بامتصاص الماء والأملاح. (الناشر)

النظر عن أن الطفل آنذاك كان يسعد من مجرد مقايضة ما عثر عليه بلعبة أجراس، ثم يتفاخر كيف تمكن بمفرده من كسب المال، فهذه الاكتشافات -بعيدًا عن كل «الصخب الجنوني» (madding crowd) في أعماق الغابات- كانت بالنسبة له كنوزًا سواء كانت محدودة أو كثيرة، وهذا أمر كان واضحًا تمامًا، واضحًا وضوح الشمس.

في هذه اللحظة من حكاية صديقي عاشق الفطر بدا لي على كل حال أن صديقي المختفي كان قدره منذ أن كان صغيرًا هو البحث عن الكنوز أو -حسب كلماته هو- أنه خُلِق لذلك. كان في نظر نفسه طفلًا مختارًا حتى وإن لم يطلق هذا المُسمى على نفسه. ولكن كان أقرب إلى شخص «غير عادي». كالمعتاد أينما كان يبتعد عن البيت.. منزل أبويه وقرية طفولته ليمضي فوق المراعي والمروج والحقول ليصل إلى آخر حدائق الفواكه على طرف الغابة كي «يستمع كما اعتاد» هناك لمختلف أصوات الأوراق -فالأشجار النفضية هي التي صنعت حافة الغابة- ليقوم بتكليف أسمى كما توهم على ما أعتقد.

عايش حركة تيجان الأشجار في مهب الريح -حتى وإن كانت بلا صوت ومتداخلة على شكل مستدير- كقاعدة أو كقانون آخر. كانت كل حركة من تلك تجعله يتأرجح في سماء بل في سماوات، وفي الوقت نفسه صار هو حكاية في حد ذاته.. حكاية

قمم الأشجار المتأرجحة وليس غيرها.. حكاية اللاشيء وكل شيء. أدرك من المشاهدة والسماع ما شعر به في المكان أكثر من التفكير ذاته. ها قد صار لحفيف الأوراق صوت! كم أعجبه الصوت! لكن من أجل ماذا؟ من أجل لا شيء. هل استمر أم تجاوز إلى حركة قمم الأشجار؟ بل فُتح مثل حساب بعد سوء تقدير طويل. ها قد فُتح أخيرًا. لم يحل تلاطم أمواج البحر لديه محل صوت أوراق أشجار القضبان والزان والمُران والسنديان الكائنة على أطراف الغابات. كان هناك الكنز الذي كان مقدرًا له منذ نعومة أظافره. وليس العلب الصفيح المدهوسة وعلب السجائر على الطرقات. بدلًا منها أكانت هناك مجالات قمم الأشجار؟ ليس تمامًا. ماذا كان ينتظر من صوت الأشجار. لم يكن شيئًا ليرضيه إلا الإشباع، لا شغف بعد نشوة أو لن يصبح شخصًا أو شيئًا. فالاستماع لم يكن هو الشيء الوحيد بل كان مرتبطًا بمطلب واحد، بدافع للفعل. لكن أي مطلب؟ وأي دافع إذًا؟ أكان مأخوذًا بحالة النشوة؟ ليس تمامًا، ليس كوحدة واحدة على الإطلاق.

سواء أكان هذا أم ذاك فقد اندفع لطرف الغابة باحثًا عن الكنز من طراز خاص حتى وإن كان كما يتراءى لي الآن وأنا جالس على طاولة المكتب برأسه الصلب الذي صار أكثر وأكثر عنادًا. يجلس طوال المساء في صمت وأحيانًا يحك في فرق شعره وينفخ قليلًا في سيقان نبات الهندباء البرية، وهو أمر لا يتوافق على الإطلاق مع نغمة أصوات الأوراق بل نغمة نشاز مثل صوت ريح بقرة.

في النهاية رجفة متكررة.. ليست بسبب تأثر وجداني أو حتى صدمة بل من الواضح أن سببها أنه يبدأ في الشعور بالبرودة والقشعريرة مع الوقت قبل الشفق وهو يترنح في النهاية للعودة إلى المنزل بكنزه الخفي، حيث قاطع والدته في الحديث، وهي التي كانت تخاف دومًا من ضياع ابنها ولا تقدر إلا على عتابه عتابًا بسيطًا بينما كان هو دائمًا يجول خارج المنزل، ربما هذا ما شعر به الوالدان دون أن يكون عليه شرحه على وجه الخصوص.

وأتذكر أيضًا أن صديقي العاشق كان يتخيل في طفولته سواء في بعض اللحظات أو في لحظة معينة أنه كان يملك بداخله قدرة لممارسة السحر. اعتقد أنه يستشعر قوة سحرية بداخله في عضلاته التي تنتفخ من بينها في هذه اللحظة عضلة وحيدة، هي عضلة السحر، لكن كيف؟ وماذا كان يريد أن يسحر أو يصيبه بلعنة؟ هو نفسه. لكن كيف؟ وماذا أراد إذًا أن يكون؟ أو ربما أراد أن يختفي.. يختفي من أمام العيون بقوة عضلية منتفخة، بعيدًا عن كل العيون وفي الوقت نفسه حاضر. لا، ليس هنا.. ليس في المكان بل يبقى متاحًا، بل وأكثر ليثير دهشة الجميع، لكن تُرى، كيف أرى أنا الآن الطفل بعد لحظة التكور. برأس يابس أكثر من ذي قبل.. كشيء واحد كامل متورم. سمعته يتنحنح، يسعل، يبتسم في داخله بخجل لكن دون أن يكون مهزومًا. وأشمه.. أستنشقه: صديقي.. لن يستسلم صبي الجوار. متأكد أنه سينجح المرة القادمة -وإن لم تكن التالية مباشرة- متأكد أنه ذات مرة

سيتمكن من ممارسة السحر ويختفي ليبعد عنا نحن الآخرين.

كان مستودع الفطر حيث كان يسلم كنوزه مقابل حفنة من المال في موسمين أو ثلاثة من فصل الصيف، يقع في بيت ناءٍ منفردًا في مكان خارج القرية. كان البيت أكثر ارتفاعًا واتساعًا عن كل المنازل الأخرى في المنطقة، وكان يختلف عنها في طريقة البناء والشكل حيث كان ضخمًا وغريبًا، لا يشبه أي بيت من بيوت الريف أو الحضر بل أقرب إلى طراز «بيوت الفقراء» السابقة، حيث توجد دمية على شكل إنسان لا تحرك ساكنًا، تفتح عينيها وهي صامته خلف إحدى النوافذ المتربة التي حل الورق المقوى محل جزء منها في التصور أكثر من الواقع الفعلي.. لا يوجد شيء أكثر من هذا في مجال البصر أو السمع لا شيء على الإطلاق في الغرفة الجانبية. كانت البناية تستخدم في الحقيقة كنوع من السكن الطارئ المؤقت أو بيت للاجئين لأسرة كاملة هربت بعد الحرب من إحدى الدول السلافية المجاورة أو رحلت من هناك، وكان هذا المنزل بمثابة مكان لجوء مؤقت لهم. كالمعتاد لم تعش الأسرة إلا في الطابق الأرضي في غرف ضيقة مظلمة بلا أبواب، أما الطابقان العلويان فيبقيان خاويين لأنهما غير صالحين للسكن ويبدوان من الخارج أنهما ليسا من أطلال الحرب بل من أطلال الأزمنة السابقة للحرب. لا يتحرك أحد داخل البيت بالطابق الأرضي إلا برأس محني ولا يخطو بداخله أكثر من خطوة واحدة بعيدًا عن المخرج. ليس بيتًا، ليس سكنًا على الإطلاق وكأنه ملجأ

متهالك، ولو خطونا خطوة أخرى سيتهدم بالكامل.

تكدست أسرة أجنبية بالكامل في الطابق الأرضي متخذة منه مسكنًا وكأن ليس ثمة شيء في ذلك. إلا أن كل أفراد الأسرة حتى الأطفال بما فيهم أصغرهم تصرفوا على نحو مستبد. وهذا بسبب التجارة التي بدأتها العشيرة بعد استقرارهم في المكان بفترة قصيرة في الغربة حرفيًّا. في كل مرة ينحنون بأجسادهم الواحد تلو الآخر، من أسفل المخابئ التي يسكنوها، عند وصول صديقي العاشق مصطحبًا حمولته ويجثم على عتبة المنزل غير الموجودة وأحدهم -ربما كان طفلًا أصغر منه في السن- يستعمل الميزان العتيق الذي يرجع عمره لزمن ما قبل الحرب، وبه كفتا ميزان إحداهما لما أحضره صديقي والأخرى للموازين.

لم يكن هو المورّد الوحيد، وقد اتضح هذا عدة مرات وكان هذا في الصيف الأول عندما تم تأسيس مستودع الفطر لأول مرة. في نهاية كل صيف وكما حدث في المواسم اللاحقة كان الجامعون المحليون يتزاحمون عند مدخل المنزل الآيل للسقوط، وظل الميزان يتحرك للأمام مع الوقت من الداخل أكثر فأكثر حتى استقر في النهاية في المنتصف عند مدخل المخابئ الضيقة، وكأنه شعار للسيادة التجارية. وكل مرة يأتي فيها الموردون الآخرون ببضاعة أكثر يجرونها في حقائب وسلال وحقائب

ظهر كبيرة، وأيديهم ممتلئة أو يجرون عربة صغيرة بينما كان يأتي هو بأيدٍ متأرجحة. كان الرجال الأكبر سنًّا ولا سيما النساء المسنات يعرفون أماكن وجود الفطر. لذا لم يلفت انتباه أسياد التجارة بحمولته القليلة من البداية للنهاية كانوا يزنونها بالدقة المعهودة ويعطونه في المقابل حفنة قليلة من العملات المعدنية.

سادة التجارة وزعماؤها. صارت هذه المسميات تنطبق بشكل أقوى على العشيرة المهاجرة صيفًا تلو الآخر. صحيح أن الأطلال التي سكنوها بقيت على حالها. لكن سرعان ما تحولت عربة التسليم الوحيدة والجرار الصدئ ذو المقطورة إلى عربات عدة وجرارات عدة ثم جديدة، وبعد ثلاثة أعوام شاهد الناس السادة التجار وهم يستقلون سيارات من أمام نفس البناية المهدمة، التي لا تمت بصلة لسيارات مستعملة وأي عربات معتادة حتى وإن كان السكان المحليون يملكون بعضها. في الحقيقة حققوا مثل هذا الثراء الذي كان خاصًّا للغاية -حسب ما رأى- ولا يضاهيه أي ثراء آخر في المكان (باستثناء النبلاء: بشكل غير مرئي) مما هو أكثر من التجارة الخالصة التي بدأت في ملجأ الطوارئ الأول، فمع مرور السنين تمكنت العشيرة بكل أفرادها من مهارة جمع الفطر في الغابات وعرفت في تلك الأثناء أفضل من السكان المحليين أماكن جمع الفطر. هؤلاء المحليون الذي ربما يدفعون لمعرفة أماكن وجود الفطر مقابل أجرة بسيطة أو تأمين ضد الوفاة.

كان عليه آنذاك أن يقابل فردًا، لا بل ليس فردًا واحدًا بل أكثر من فرد من أفراد العشيرة حتى أعالي الغابات الجبيلة بالقرب من حدود الأشجار، وكان ذلك في الصيف الثالث من جنونه الطفولي الأولي بالفطر كما استشعر، حيث كان يلقاهم بين أشجار الصمغ والتنوب والصنوبر. حيث كانوا ينظرون له من بعيد بابتسامة ثم عن قرب يشيرون له بوضوح أنه لا يوجد أي شيء في المكان على الإطلاق فلا أثر لأي مظلة فطر أو ساقه.

الغريب في الأمر حقًّا: أن عضوًا واحدًا من عشيرة التجار والجامعين هو -كما روي لي- من علق في الذاكرة وبقي عبر كل السنوات خارج هذه التجارة أو خارج الدائرة. علاوة على ذلك كان ثمة أمر واحد غير مشكوك فيه على الإطلاق وهو أن هذا العضو -كما كان يطلق عليه في عصره- كان ضعيفًا ذهنيًّا أو متأخرًا ذهنيًّا. كان هذا العضو فتاة ضعيفة ذهنيًّا أو متأخرة عقليًّا. لم يتمكن أي فرد من رؤيتها أو أن العشيرة حافظت على إخفائها أكثر فأكثر.. تلك العشيرة التي تحولت إلى عصبة. في الأساس ظلت لحظة واحدة عالقة في ذاكرته مع هذه الفتاة المتأخرة عقليًّا، عندما أتم عملية توريده للفطر وحمل في جيب بنطاله النقود المعدنية في المقابل، وكان في حالة مزاجية تجمع بين الزهو والفضول، حيث أخذ يتجول حول البناء نصف المهدم القابع منفردًا في المكان لجمع الفطر وقابل الفتاة خلفه بين مجموعة متشابكة من الغصون التي كانت عبارة عن كرمة عنب

ذات يوم والتي كان يوجد أحدها بالقرب من منزل والديه لكنها لا تزال يانعة. وقفت فتاة في نفس عمره فوقها، على وجنتيها بقع حمراء دائرية وعيناها جاحظتان، علقتا في ذاكرته وهما مستديرتان وحمراوان. كانت تقبع هناك على شيء كان بمثابة مقعد لحلب الأبقار ذات يوم وكانت تبتسم ابتسامة خفيفة، لا، بل تبتسم له بشفتين سميكتين. فهل ذهبت خلف زاوية المنزل واختفت عن الأنظار؟ لكنها استوقفته بأن تحدثت إليه أو بالأحرى تحدثت إلى نفسها وكأنها كانت تنتظر شخصًا، شخصًا مثله، لا، بل هو بالتحديد ومنذ وقت طويل. وما قالته له بدا متناقضًا مع وجنتيها الحمراوين تمامًا وعينيها اللامعتين، ثم فيما بعد لا شيء. حيث قالت له إن الضوء قوي للغاية ولم يعد رأسها يتحمل وإن الرب أراد معاقبتها لكنها تتمنى أن تعرف لماذا! يسقط نوره على جبينها إلا أن عظم جبينها سميك للغاية ولا يستطيع الرب أن ينفذ من خلاله. كم يؤلمها. كم هو ألم متواصل! ولماذا؟ وإذا بها تنهض وترفع ثوبها، أو تحديدًا مئزرها لتقضي حاجتها أمام الصبي الغريب، الذي لم يشاهد سوى حذائها المرتفع الذي يفترض أنه يسند ساقيها الضعيفتين، كما رأى طرف جورب من الصوف في فردة حذاء -القدم في الفردة الأخرى كانت عارية. لا، كان الجورب منزلقًا لأسفل حتى كعب القدم- ما كان يُعرف حينها بأنه "متضور جوعًا"، أي إن الجورب كان "متضورًا جوعًا".

أبعدت العشيرة الفتاة المتأخرة ذهنيًّا في دار رعاية بعيدة في

منطقة أخرى فيما بعد بفترة قليلة، إذ كانت أسرة جمع الفطر قادرة على تحمل تلك النفقات، وماتت هناك بعد مرور بضع سنوات. ونُقلت مرة أخرى للمنزل المهدم للدفن، أما هو حيث لم يعد طفلًا ولم يعد يجمع الفطر، بل صار يكسب ماله بطرق أخرى، فقد شاهد موكب الجنازة نهاية عطلة الشتاء من نافذة منزل والديه. كان الثلج يتساقط طوال اليوم لكن الثلج تحول إلى أمطار وصار الجو معتمًا ورماديًّا وصعد بخار مغطى بالثلوج. التابوت الملفوف بقماش أبيض علامة عذرية المتوفاة، ورفعت الأمطار المنهمرة هذا القماش أبيض اللون من الكآبة العامة وعززت هندسة التابوت. وشعر لاحقًا وكأن هذا الموكب الجنائزي تحديدًا لم يصادف نهاية عطلة المدرسة وحدها، بل وداع دائم للمنطقة وطبيعة بيئة الطفولة وذويه بشكل أو بآخر.

كان صديقي يسعى للمال وهو طفل لأنه من المؤكد كان يريد شراء شيء ما. والإمكانية الوحيدة للحصول على وسيلة الدفع الضرورية تلك كانت وفقًا للشروط التي نشأ فيها في زمنه هي جمع الثمار.. ثمار الغابات مثل أنواع التوت البري وجمع أنواع الفطر ومنها الأصفر تحديدًا، الذي كانت أسماؤه تختلف من بلد لآخر ومنها الأسماء الواردة في هذه الحكاية في فترة ما بعد الحرب في منطقة سكنه حيث كانت أنواع الفطر هي السلعة التجارية الوحيدة وقتها إلى حد ما.

لكن تُرى ماذا كان يريد أن يشتري بالمال الذي يحصل عليه من بيع الفطر؟ أظن بعض الكتب. لأنها كانت في حالة صبي الجوار أنواعًا أخرى عن التي كنت أفضلها. فكما كانت الكتب الروائية والكتب عن الإبداع والتخيل أي الأدب هي المفضلة بالنسبة لي، كانت الكتب بالنسبة له والتي كان يطلق عليها أيضًا كلمة «أدب» أي كل الكتب أو أي شيء مطبوع هو وسيلة مساعدة لإشباع شغفه بمعرفة العالم المحيط، فتعطشه الجامح للمعرفة (هذه كانت سمته الأساسية من زمن طفولتنا حيث كان يجف فمه مرارًا وتكرارًا من كثرة الأسئلة.. أسئلة تلو الأخرى). لذا ذهب بأول مال يحصل عليه من بيع الفطر وليس أول مكسب مالي له، سيرًا على الأقدام على الطريق -الذي قلما يخطو عليه أحد لمدة نصف يوم- ثم عاد وهو يحمل حقيبة ظهره التي ما زالت رائحة الفطر تفوح منها (وتصدر منها رائحة كريهة) وهي مليئة بالمطويات التي ربما كانت تدور حسب موضوعات العناوين عما يلي: «... ما أردت أن تعرفه دومًا / الإجابات المئة وواحد وتسعون النهائية».

ربما خفت حدة هوسه الأولى بالفطر على مر الأحداث من تلقاء نفسها، لكنه روى لي أنه رأى كابوسًا على وجه التحديد وضع نهاية مفاجئة لهوسه غير المؤذي. ذات يوم تمكن أن يجد مكانًا في أعالي الغابات الجبلية ويبدو أنه لم تطأه أقدام أي باحث آخر عن الفطر من قبل، ولم ينهبه المحليون أو أحد أفراد العشيرة المهاجرة المنتشرة في أبعد أطراف الغابة النائية وقضوا على

خيره. حيث لم يكن ذلك المكان مجرد مكان وحسب، بل كان أرضًا كاملة في تصوره حيث تمتد أرض الفطر بلا نهاية وكأنها قارة بأكملها. حيث لم يجد سوى اللون الأصفر، ولا شيء سوى الأصفر، الأصفر أينما مد بصره وذهب وصعد وقطع الغصون وضرب بالخطاف وقفز فوق جداول الماء وحطام الأخشاب والشعب الضيقة الصغيرة. جمع قدر استطاعته بيديه، يسارًا ويمينًا، حصد المحصول وجناه وجمعه، جمع الفطر الأصفر من الطحالب الجبيلة أو كما يطلق عليها أفراد العشيرة «الثعالب الصغيرة» وفقًا للترجمة عن لغتهم السلافية (التي صارت معتادة له فيما بعد) لم يقل عددها. قال لي بعد ذلك بفترة طويلة: «هذا الأصفر ليت كان هناك مثل كلمة «الزرقة» و«الخضرة» والرمادية». لم يتوقف اللون الأصفر. هل ربما من هنا أتت نظرته اللاحقة لكل شيء بلون مختلف، أحمر مختلف ورمادي مختلف وأصفر مختلف؟

لكن ما كان مثيرًا للدهشة البالغة بل البهجة حقًّا طوال اليوم أو على الأقل لبعض الوقت، تحول في الليلة اللاحقة إلى شيء آخر عندما اضطر عاشق الفطر أن يقضيها في كوخ فارغ على جبال الألب. حيث سرت رؤية فطر القديس يوحنا إلى نوم الصبي الصغير. وصار طوال الليل يحلم كيف كانت حركته في أكثر أماكن الغابة عمقًا أقرب إلى التأرجح من جلسة قرفصاء لأخرى، أكثر من كونها قفزًا وكأنه جرادة صفراء وهكذا دواليك طوال

الليل. لم يفقد وعيه. لم يكن شيئًا مؤذيًا مقارنة بهذا العدد الهائل الذي لا يُحصى من اللون الأصفر الممتد إلى ما لا نهاية لا بل الأصفر المشوه.. أصفر ثم أصفر أمام عيني الحالم. ومرة أخرى، لا، أصفر غير منقطع.. أصفر غير منقطع عن النائم يحوم أمام ناظريه بل تخطى عينيه وتسلل إلى داخله وانساب أسفل يديه المجبورتين على الجمع بلا انقطاع، ثم سار إلى أعماق روحه في الوقت نفسه، حتى صار متحيرًا حرفيًّا أمام هذا التشابك واللفافات الصفراء والومضات. شيئًا فشيئًا اختنق من الأصفر.. شيئًا فشيئًا، كاد الأصفر المتزايد أن يفجر قلبه في صدره. أصفر ثلاثة أمثال، أربعة أمثال خمسة أمثال وهكذا.. ربما تسببت هذه الهجمة من الأصفر السام في جفاف دماء قلبه وتسممها.

ربما لم يكن مثل هذا الكابوس وحده هو ما أثناه عن هوسه الأول بالفطر في مرحلة الشباب، بل ساهم الحلم -وهو الأمر الذي كان مؤكدًا بالنسبة له أكثر من أي شيء آخر وبشكل قاطع- مثل المدارس الخارجية بعيدًا في المدن، وأولى علاقات الحب ومعرفة صداقات أخرى أكثر من صداقته مع طفل الجار في ترك عالم الفطر أو على الأقل خلف الآفاق، أي التحرك خلف الجبال السبعة التي يعود أصل كل منا إليها، خاصة أنه تمكن بالفعل من شراء كل شيء كان يتوق له قلبه بمال جمع الفطر.

في الحقيقة لم يكن لهذا الأمر علاقه بتجنبه الدخول في الغابات

في المستقبل سواء في منطقة مولده أو في أي مكان آخر. فقد كانت هذه الغابات بسبب جولاته لجمع الفطر أحد عناصره حتى وإن كانت تختلف عن الأطراف والحدود وأراضي الغابات السابقة. استمر في جمع الفطر ونيلها لكن من دون تعب أو بحث، خصيصًا عندما تقابله وهو في طريقة بهذه البساطة. ودوما ما كانت أنواع الفطر التي تصادفه هي من نوع فطر القديس يوحنا[7] في منطقة الألب، حتى عندما تكون كثيرة لدرجة أنها تذكره بوزنها على الميزان في المدخل بلا أبواب في منطقة مستودع الفطر. لم يفكر على الإطلاق في بيعها، ليس لأنه لم يعد في حاجة إلى المال حيث كان لا يزال في حاجة إليه في فترة ما بعد الطفولة سنة تلو الأخرى، بل كان يقاوم الحصول على المال من خلال «تجارة»، من خلال شيء مثل هذا فقد كان يرى أنه يجب أن «يحصل» على المال من خلال أعمال أكثر نُبلًا وقيمة وهو ما تمنى.

لذا كان يترك ما يعثر عليه في الغابات بالصدفة وعلى نحو عارض لأمه في البيت بوجه عام. التي كانت تسعد غالبًا حتى وإن لم يكن يحضر الكثير، وكأنه أتى لها بكنز على الرغم من أنها كانت ترى مثله أنه لم يعد هناك وجود لكنوز بعد الآن. لأنها ليست سلعة تجارية ولا تناسب المقايضة. عندما كانت تشرع في إعداد الخليط الأصفر هذا أو ذاك على لوح الموقد الذي يعمل

7- هي عشبة طبية لها فعالية ضد الاكتئاب. وخواص قوية مضادة للالتهابات. (الناشر)

بالخشب لم تتمكن من تقييم الرائحة ولا ابنها، كما لم يجدا فيه مذاقًا حقيقيًّا عند الأكل (إلا أن هذا الأمر قد تغير بالنسبة لابنها مع الوقت).

ثمة أمر آخر كان كثير الحدوث، وهو أنه كان يصحب إلى منزله أنواع فطر عملاقة لها مظلة ضخمة وقدم مرتفعة هشة، كان يجلبها من أطراف الغابة التي ظلت بالنسبة له «أماكن مصادره وحدوده» القريبة من قلبه مثل فترة الطفولة، حيث كان يطلق على تلك الأنواع أسماء «فطر المظلة[8]» أو «المظلات» كما هو معتاد، كان ذلك في فترة الخريف قبل عودته إلى المدن التي كان يدرس بها. لم تظهر أمه الفرحة بل اندهشت من الأشكال لأنها كانت تبدو أكثر غرابة وندرة وربما كذلك أجمل، حيث كانت تضع القبعات بطبقة من فتات الخبز المقرمش في المقلاة للتحمير مثل شريحة لحم وتقدمها للابن وللأسرة بأكملها حيث كانوا يحبونها بشكل استثنائي للغاية. يا ويل من يتحدث عن هذه الأكلات الشهية الناعمة التي لا تقارن والتي لا تخطر على بال أحد أنها فطر فهي شيء خاص أو له خصوصية.. مذاق رائع يفوق طعم شريحة اللحم الطري المضروبة حتى صارت ناعمة وهشة. يا ويل من يذكر كلمة الحرب المتداولة (التي لم تذبل حتى يومنا هذا) «بديل اللحم» حيث يجب تذوق فطر المظلة. كان الرضا

8- المظلات هي نوع غير عادي من الفطر، وتشبه قبعات الفطر الضخمة، وتشتهر بأن لها طعمًا رائعًا للغاية، وتنتشر في جميع أنحاء العالم تقريبًا. (الناشر)

يسري خلال الأسرة المجتمعة بسلام لمرة واحدة وخلال البيت حتى ركن الغرفة الذي صار خاويًا وإلى صور موتى الحرب التي تم تكبيرها. كان مذاقًا شهيًّا مُرضيًا وسوف يظل حتى بالنسبة للابن الذي كان يبالغ في اختيار ما يأكله، هذا الابن الذي صار على مر عشرات السنوات شخصًا آخر عن الابن الذي كان يقاوم -وسيظل- تناول ما جمعه بنفسه وجلبه للمنزل.

هذا ما كان يرويه لي في كل مناسبة بل ومرات عديدة. حيث قال لي إنه قدّم لابنه مثل هذا الفطر بطبقة من الخبز المفتت المقرمش، المعد مثل شريحة اللحم على طريقة والدته «إسكالوب». إلا أن فم الطفل لم ينخدع ومع أول قضمة صاح قائلًا «خدعة»، لكن هذا لم يكن معناه أن الطفل توقف عن المضغ، بل على العكس.

تبع فترة هوسه بالفطر نصف حياة لم يشغل فيها عالم الفطر أي مساحة تذكر. وإذا حدث فيكون بمعنى سيئ. فبعد أن اشترى منزلًا كان في مكان بمفرده بقدر كافٍ للغاية بعيدًا عن كل المنازل الأخرى الواقعة في منطقة سكنه بالمدينة -كان عبارة عن بناية نصف مهدمة عند الانتقال إليها- انتشر عفن المنزل في أحد أسوار البيت بمجرد أن أسس البيت مع أسرته وطفله. ولم يكن في وسعه فعل أي شيء لمنعه من الانتشار حيث قضى على الخشب والمونة وقضى على أحجار الجرانيت في الجدار، ولم يكن هناك حل سوى هدم الأسوار (وهو الأمر الذي لم يصب البيت

من الداخل بأي أذى).

صار أيضًا مالكًا لحديقة مهملة إلى جانب البيت نصف المهدم.. تلك الحديقة التي كان ينمو بها دومًا ما يعرف باسم فطر القرن المتعفن. وكان ينمو الفطر سنويًّا في مكان مختلف تمامًا عن العام السابق، حتى بعد الحفر والحرث والهدم. ينبعث من هذا النوع من الفطر رائحة كريهة انتشرت خلال الحديقة وتسللت إلى المنزل وتوغلت في أبعد زواياه، المسحورة بالحب والسر، رائحة كريهة لا يمت لها اسم الفطر بصلة. نعم كان هذا النبات مزيلًا للسحر، حيث لم يعد أي جزء منه باديًا بين الأوراق القديمة في شكل ثلج ناصع البياض ورائحة جميلة، على الرغم من ليونته ونعومته أسفل إحدى الشجيرات مثل نبات الفجل، ثم تحول بين لحظة لأخرى مثل حركة سريعة طبيعية ليصبح كفطر القرن المتعفن[9].. عصا وكأنها من مادة البوليتسرين. حكى لي أن «الموضوع يتعلق بالأساس» بالرأس -الذي يضطرنا لتذكر صورة رأس القضيب بمعنى أدق من اللحظة الأولى- البادية خارج الثلج، رأس متحلل تسيل منه مادة صفراوية. هذا الرأس ذو الرائحة الكريهة التي خرجت منها قطرات سائلة للفطر -بحق السماء أي سماء- كانت تسرح وتمرح في بيتي، في بيتنا بمجرد خروجها من قشرة الأرض؛ كان يحوم حولها سرب من الذباب

9- هو نوع من أنواع الفطريات ويتميز برائحته العفنة والمنفرة. وبشكله القضيبي عند النضوج. وينتشر في أوروبا وأمريكا الشمالية. (الناشر)

ظهر من العدم واقترب بشدة من الكتلة الصفراوية، لدرجة أن العصا البوليسترين انحنت وهوي الرأس بكتلة الذباب الملتصقة بالفطر على الأرض ولم ينزعج الذباب ولو لثانية واحدة أثناء التهامه للجيفة، ولم تخف حدة الرائحة النتنة للجيفة ولو بقدر ضئيل. هل زاد النظر للذباب من قوة الرائحة النتنة التي أزالت السحر. لا، لم يكن هناك شيء أكثر قوة.

ثمة أحداث عارضة غير مستحبة مع الفطريات في تلك العقود من حياته، لكن صديق قريتي لم يتحدث عنها وكان يترك لي تخيل واحدة منها أو أخرى. علاوة على ذلك فإن ما كان يحكيه هو بنفسه حتى ولو كان يتمادى في حديثه بعيدًا ويبالغ أكثر في الهزل عن الجد، كانت فصولًا لا تعني أي شيء على الإطلاق مثل الفطريات في الوقت الراهن بوجه عام. فصول غير محببة بوجه عام بغض النظر عما ذكر، ربما كان يذكرها باقتضاب إلا أنها لم تثبت أي شيء ولا يعتبرها جزءًا من حياته ولا فصلًا فيها ولا حتى جُملًا اعتراضية صغيرة في قصة حياته.

كان يحدد قصة حياته -على الأقل نصف حياته- بعد أن رحل عن منطقتنا، بشيء أطلق عليه اسم «الرضا غير المبالي»، هذا ما تصوره عن حياته وهذا ما وضعه في رأسه وليس فقط في رأسه، أو هذا ما اختاره لحياته وانتقل إلى شيء آخر، بل وتمادى إلى أكثر من منظور واحد. فهذا الرضا غير المبالي ساعده في

توزيع الأوزان بالتساوي والحفاظ ليس فقط على المسافة بل الابتعاد كفعل.. كنشاط وإذا دعت الضرورة كتأكيد وإبراز وتمييز لعمل متوازن، الأمر الذي أثر كفعل ثابت، لا ليس عدالة بل تلبية احتياجات. وكان المقصود بالرضا هو أنه كان يشع بالقبول مع كل أفعاله وقراراته وإجراءاته التي كان بعضها أو كلها شائكًا وخطيرًا. قبول مبهج وله وقع ساخر على البعض (القليلين) ومنهم أحيانًا أنا.. تناغم وانسجام كان يخطر على بالي أحيانا في مثل هذه الحالات وأتخيلها أكثر وأقوى منه شخصيًّا، أي انسجام غريب كان يرد به برزانة مبتسمة تتبادر إلى ذهني بقوة أثناء فترة تسيده العالم، وكان هذا النوع من القبول والرضا جزءًا من طبيعة المنطقة التي يرجع إليها أصلنا، حيث لم يكن للأحزان مكان أبدًا طوال القرون وحتى يومنا هذا «لا يوجد تراجيديا لمن مثلنا. تراجيديا؟ (بحق السماء فلترقد أحزاننا في سلام)». آمن صديقي المختفي بنفسه في هذه الفترة من حياته بعيدًا للغاية عن كل عشق وهوس وابتعد وحافظ على مسافة بعيدة للغاية عن الأوزان الخاطئة.

لم يخطر على باله قط أنه سيصبح شيئًا ذات يوم. وهو طفل كان يحتار في البحث عن إجابة سؤال «ماذا تريد أن تكون؟» وكان يكتفي بهز كتفيه في حيرة أو يتظاهر بالغباء بين الجد والهزل وهذه إحدى مهاراته الفطرية الخاصة. غير ذلك كان نهمًا للمعرفة. لم يكن يريد أن يعرف عن نفسه أي شيء في المستقبل.

وبالنسبة له لم يكن ثمة شيء يستحق أن يعرفه. علاوة على ذلك كان من غير المتصور منذ أن كان صغيرًا أن يلوح لشخص مثله شيء اسمه مستقبل. لم يكن يكترث بهذا الأمر على وجه الخصوص فشخص مثله بعد أن زال عنه هوسه الأول لم يعد يعبأ بأي شيء على الإطلاق.

بهذه الطريقة تحول صديق قريتي -الذي لم يكن ينوي أن يكون شيئًا- إلى شيء، حتى ولو كما حاول أن يقنعني ذات مرة، إلى شيء صالح للعالم الخارجي. «في أعماقي لم يكن أي أمر يسري بي أبعد من أطراف الغابة التي كنت أمضي إليها وأنا في سن السابعة لسماع صوت الرياح في قمم الأشجار. ربما صار مني شيء بعد خروجي من هذا العالم، يبدو الأمر هكذا، لكن لم يعد كذلك. أقصد لن يصبح مني شيء». سواء هذا أو ذاك فقد قدَّم دون قصد ومساعدة شيئًا للعالم على مر عشرات السنين، فقد عمل. عمل في كل اتجاهات الأرض والعالم الممكنة وكان مؤثرًا. تُرى ما الذي أثر فيه؟ حسب ما نما إلى مسامعي في تلك الأثناء من العالم البعيد عنه على الأقل كان تأثيره غير سيئ. كان له احترام محدد لديّ ولا سيما في ضوء حكمي المسبق؛ بأنه إذا انشغل المهتمون بالمصلحة العامة وليس بالبشرية أكثر بأمور تافهة مثل خياطة الأزرار أو جمع الفروع اليابسة أو التكاسل على الأقل، فلن يرتكبوا أمورًا بشعة.

سأشرح فعله وتأثيره لنفسي على النحو التالي، حتى ولو أنني متأكد أن مثل هذا الشرح سيجاوز تخيلي الساري لبعض الوقت عن صديقي العزيز المختفي. نبع تأثيره من حضور ذهنه ومن غيابه المفاجئ.. غياب تام ثم حضوره الذهني الكامل فجأة وبالعكس ثم بالعكس مرة أخرى. كان يستطيع أن يجذب الانتباه إليه بين لحظة وأخرى، فجأة وبقوة من حضوره وبدلًا من الخصم كما هو معتاد يجد الآخر نفسه أمام شبيه أو بيت غير مسكون يطرق بابه بعناد وأحيانًا يضرب بقوة وهو يصرخ: «أيوجد أحد بالبيت؟» وفي بعض اللحظات الأخرى لا يصير البيت وحده مسكونًا بل المكان والموقع. درجة تعلو كل الدرجات الخارجية التي يحتاج إليها فرد أو تعد بالعدالة على الأقل، الأمر الذي يبدو في لحظتها شيئًا يتحتم فعله. ولأنه كان يؤدي عمله بيده اليسرى بدا له وليس هو فقط ولفترة طويلة أنه ليس عملًا.

ها هي الاستنارة تأتيني من الخيال الآن بأن مثل هذا الإيقاع النابع من الحضور إلى الغياب ثم العودة، يكمن أساسه في التغيير بين شغفه الأساسي للمعرفة ورغبة أكثر وشوق وبين هروب مسيطر من الكتب والمنشورات، من الأدب، ومنه إلى الهروب من المنزل والقرية بعيدًا عن الناس إلى أطراف الغابة البعيدة عن البشر والساكنة التي لا يمكن فهمها أو فك طلاسمها والمغرقة في السكون، تلك الأطراف التي لا تبوح لأحد غيره وتهمس له بأصواتها وترافقه. ثم يعود ثانية إلى أصله، في

الحال! فوجوده لعبة دائمة بين الرغبة في المعرفة والألفة والسر، على كل حال هذا الأمر لم يكن له صله بأي شخص وحتى أنا صديقه الوحيد لم يأتمني عليه إلا بعد مرور زمن طويل. ربما ما كان ليقدر على فعل شيء آخر في العقود اللاحقة أي طوال نصف حياته حتى اشتعل لهيب هوسه الذي عاد إلى وعيه.

لقد أثر صديقي، أي نشر الثقة من خلال التغيير الزمني بين الحضور والغياب، باستثناء هؤلاء الذين لا يكترثون بالثقة وينظرون لها كنقطة ضعف. كان الأمر وكأنه القاضي والمحامي الخاص بي في شخص واحد، ربما كان أكثر المحامي الخاص بي، خاصة عندما كان الأمر يتعلق بالاحتياج إليه كمحام. كان في الواقع محاميًا. محامي جنايات وكان يسافر كثيرًا إلى محاكم الجنايات الدولية، وكان نافعًا للكثيرين لأن مسألة القضاء بالنسبة له كانت دومًا نوعًا من المطالبة بالنظام، وتصوره البعض رجل سياسة مشهورًا، ولحسن الحظ فقد حافظ على هذا التصور الذي لم يكن يخطر على باله. لم يتخيل تطوره هذا ولم يكن يستطيع أن يتصور نفسه أنه «سيصير شيئًا» لكنه صار، ناهيك كما قلنا إنه يقدر أن يصير ما يريد.

على مر عشرات السنوات لم يصبح صديق قريتي بهذه الطريقة ثريًا، ولكن كما قيل ذات مرة في «وضع جيد». لم أسمع شيئًا عن أعداء وللعجب لم يقل لي أي شيء عن صداقات أيضًا وأنا موضع

ثقته الأساسي. لذا كنت أتعجب عندما يصل إلى مسامعي شيء عنه وعن نساء، أو الأفضل أن أقول عن نساء وعنه، لأنني لم أتمكن من تخيله يومًا رجلًا له علاقات نسائية، لكنني أرى ذلك لأنني عرفت الطفل ثم الصبي النحيف على الرغم من أنه كان رياضيًّا (عند لعب كرة القدم وغير ذلك مع إيقاع الغياب والحضور الذي كان يحتال به على أعدائه ويفوز عليهم). لكن «بطل نسائي». بطل؟ سعيد الحظ مع النساء؟ حظ؟ أتصورنا نضحك الآن.. صديقي المختفي وأنا.. كلانا.

كانت هذه الفترة الزمنية هي فترة -كيف أقولها؟- صعوده المجتمعي، ومن ثم لم أعد أراه تدريجيًّا. استمر في منحي إشارات حيوية لم تكن تدور عما كنت أقرأه في الجرائد عن حياته. لم أستطع الثقة أبدًا فيما أعرفه عن طريق السمع ومن الجرائد، ويعلم الله السبب على الرغم من أنه كان عليّ في الحقيقة أكثر من هذا أن أظل غير مصدق بوصفي شخصًا معنيًّا أو حتى مقصودًا أحيانًا. إذا كان الأمر يتعلق بشخص غيري كنت أميل أن أصدق وأنا أعمى ما كان مطبوعًا في مكان ما على الأقل في سنواتي المبكرة وحتى الآن ولو كان من الوهلة الأولى. طبقًا للجرائد كان عليّ أن أعرف على الأقل أن صديق قريتي -رجل العالم المستقبلي- «يرتدي دائمًا حلات إيطالية وفرنسية وأحذية إنجليزية مصنوعة خصيصًا له وربطات عنق حريرية يغيرها كل موسم بل وفي كل وقت من

أوقات النهار». تزوج للمرة الثالثة أو الرابعة وانفصل للتو عن آخر زوجة له، كانت هندية من فورت يوكون ألاسكا.. علمت أن نساءه كُنّ دومًا «من مناطق أكثر غرابة» مرة تلو الأخرى بينما انتشر في مكان ما أن السيدة هي التي هجرته كما هجرته زوجته الأولى. هل كان هناك سر يلعب دورًا؟ سر ليس جميلًا على وجه الخصوص؟ بصفة عامة هل كان الأمر متعلقًا بالأطفال؟ لم ينجب طفلًا واحدًا طيلة عشرات السنين.

في الوقت نفسه تقريبًا لاحت في المقابل إحدى إشارات حياته الشخصية. تساقطت أولى قطع الثلج في حديقته. عند تساقطت أوراق الأشجار في الصباح كان هناك طائر أبو الحناء الأوروبي كما هو معتاد «هل هو دائمًا الطائر نفسه أم أن هذا مجرد تخيل؟» يرفرف من الشجيرة، «بلا صوت تمامًا ليجثم على الأرض السوداء أكثر صمتًا وسكونًا من أي ورقة شجر. قال لي إنه قرأ قصتي «عن الحياة في خليج مشاع» ووجد نفسه في الحكاية. علاوة على ذلك قال لي إنه قابل المرأة التي منحته أخيرًا الدفعة المرغوبة، أي وجد نفسه أمامها «جادًّا» وهو الأمر الذي طالما حلم به مع أي امرأة وصار جادًّا الآن، أي إنه أراد أن ينقذها على الفور «وأن يمنحها الأمان» وأن ينقذ نفسه أيضًا حتى ولو لم يكن الاثنان في حاجة إلى ذلك، أي ليسا في حاجة إلى إنقاذ أو أمان في تلك اللحظة. وأكد لي بقوله: «لا تقل لأحد فأنا أحكي لك وحدك».

سواء هذا أو تلك قابلا بعضهما في منتصف الطريق وهذا التعبير ليس مجازًا. على كلٍّ يرجع أصل السيدة -وهذا ما كان يحلم به منذ وقت طويل- حسب قوله: «من منطقتنا، صديقي العزيز» من القرية المجاورة. وذروة المفاجأة: أنهما ربما كانا ينتظران الحافلة ذات يوم في المحطة ذاتها، حتى و و كان ذلك في وقتين مختلفين لكنه عبّر عن ذلك بقوله: «ماذا كان شأن كل الأزمنة المختلفة مقابل الوقت الآخر؟».

اجتمع بسيدة القرية المجاورة مرة تلو الأخرى «أو كما تريد بين ليلة وضحاها» وكانا ينتظران مولودًا في فصل الصيف عرفا سرًّا اسمه دون أن يكونا في حاجة إلى البوح به. قال: «نعم صديقي، قادتني لمسارات سرية كما قال كاتبك المفضل «فولفرام فون إيشنباخ»[10]. لا تتمنَّ لي الحظ السعيد بل الخير. أن أكون بخير دومًا. صلِّ من أجلي. فأنا في حاجة إلى ذلك وأشعر أنني بمفردي ضعيف للغاية والآن تحديدًا لأن الأمر صار على محمل الجد أخيرًا. وثقت بي لكن كيف؟ فأنا لا أثق في نفسي.. أخاف من نفسي.. نعم، صلِّ من أجلي. من يصلي من أجلي؟ شعرت بوهن شديد من ناحية وأنني مختار من ناحية أخرى. هذا ما جعلني أشعر بالخوف من نفسي في وضعي هذا. آنذاك عندما كنت أهرب بعيدًا عن ذويّ، إلى حافة الغابة كي أكون وحدي مع صوت أوراق

10- هو أديب ألماني ولد نحو عام 1170 في النمسا، وتوفي في 1220 تقريبًا في مدينة إشنباخ. (الناشر)

الأشجار وطنين الفروع شعرت أنني مختار. بمعنى ماذا يجب أن أفعل معكم؟ وها هو يعود الأمر ثانية بحدس: أيتها المرأة ماذا عليّ أن أفعل معك؟ فأنا ضعيف للغاية منذ زمن بالنسبة لأهلي وفي الوقت نفسه ولماذا؟ فهل أنا مختار أم أخدع نفسي أنني خلقت لشيء آخر. شيء مختلف تمامًا، لكن ما هو؟ أو بالعكس المختار من الآن وليس مناسبًا للصحبة، أي صحبة. هل هذا محظور على المختار؟ لا تلمسوني. أنا محظور عليكم؟ صلوا من أجلي!».

أكان يجب تحويل حياة صديقي المختفي على مدار المعطيات إلى حكاية في حد ذاتها منذ هذه اللحظة؟ إذا كان الأمر هكذا فكان حقًّا دون مباغتة أو رعب. ما حدث معه بدأ بنعومة بالغة وظل هكذا لفترة طويلة. في البداية كان وظل لفترة طويلة على هذه الشاكلة، لا شيء سوى الأمور المعتادة، أي أمور معتادة محببة طافت بخياله كنموذج أعلى للحياة لحمايته من وعيه أن يكون شخصًا خاصًّا، أمور معتادة غير مؤذية وحسنة ومرضية للغاية. لا شيء أكثر سلمية مثل الاعتياد ولكن لماذا؟ ولكن؟ لا يوجد شيء أكثر بهجة من الأمور المعتادة التي واجهته فيما بعد. لا يوجد ما هو أكثر براءة منها. أليس كذلك؟

بدأت الحكاية الحقيقية والخاصة في أحد أيام فصل الصيف.

أسابيع قبل مولد طفله. خرج من البيت والحديقة إلى الغابات القريبة الكائنة على التلال، التي يمر خلالها أقصر طريق إلى الأعالي بطريقة سلسلة في البداية ثم إلى أسفل الأعماق ويؤدي إلى العاصمة. لم يكن لديه أمر ليقوم به، بل أراد أن يقابل زوجته التي أوشكت على الولادة على العشاء. كان قد أنهى مرافعته في المحكمة حيث كان يدافع مرة أخرى عن متهم بإحدى جرائم الحرب. ترك سيارته في الجراج بسبب حاجته للمشي بدلًا من القيادة من أجل طفله الذي لم يولد بعد وسار لأعلى ولأسفل وترك محطة الضاحية.. عبر الغابات الواقعة على التلال التي لم تشكل عائقًا مرتفعًا للمدينة الكبيرة مرتديًا حلة ورابطة عنق وقبعة «لم تكن من نوع بوسالينو أو ستسون».

قطع الطريق الغابات النفضية[11]. التي كانت تختلف عن غابات أشجار التنوب والشوح والصنوبر البري التي عهدناها من فترة طفولتنا. كانت الغابات في أرض أخرى خفيفة من أعلى لأسفل والأشجار مثل البلوط والكستناء الحلو والزان، والقضبان على مسافات فالفروع والأفرع التبادلية غير متشابكة ولا توجد أشجار في الطبقة السفلى تقريبًا، وعند سطوع الشمس تسري

11- الغابات النفضية المعتدلة هي مجموعة متنوعة من الغابات تهيمن عليها الأشجار التي تفقد أوراقها كل عام في فصل الشتاء. ولذا جاءت التسمية لأنها تنفض أوراقها. وتنمو في النصف الشرقي من أمريكا الشمالية. ووسط أوروبا. (الناشر)

أشعتها خلال الغابة بأكملها حتى ولو كانت ممتدة. تعبير «الاتساع المضيء» كان له معنى آخر. في البداية لم يعجبه مثل هذا النور والضياء. أو كما يقال في بلد آخر «النبيذ الأبيض ليس نبيذًا». لذا كان يفكر أن أشجار الغابات النفضية ليست غابات. فالعتمة والظلمة والضيق والانقباض وعدم وضوح الرؤية بل ضرورة التسلل كلها أمور كان يفتقدها. علاوة على ذلك ومع كل هذا الاتساع المضيء كانت هذه الغابات النفضية غير نظيفة بالنسبة له، لا، الأفضل أن أقول غير نقية. أي افتقد فيهم الشعور بالنقاء الذي كان يشعر به في غابات الصنوبر الإبرية وخاصة في أعماقها، فمع كل الاضطراب الذي عايشه كان مرتبطًا بالنقاء والصفاء. حتى الفطريات التالفة والهياكل العظمية وخاصة البيضاء للغزلان والثعالب والأرانب البرية كان تشع هناك بشيء من النقاء في الطحالب وعليها. علاوة على ذلك لم يشعر لفترة طويلة أو ربما في هذا اليوم الصيفي أن الغابات النفضية تمثل أماكن ومحيطًا وفضاءات، بل مجالات بينية ومحطة عبور من المخرج (أ) إلى (ب)، باستثناء تلك المرة التي سار فيها مع زوجته اللاحقة إلى مدينة أخرى خلال غابة نفضية وأبعدته فجأة أو انتزعته تقريبًا.. لم يعد يعرف هل من قميصه أم من حزامه ولكن على كل حال لم تبعده من رابطة عنقه أو من شعره وهي تحمل على وجهها تعبيرًا وكأنها كان عليها أن تنقذه.

حتى ذلك الوقت لم ينظر أبدًا صوب الأرض خلال عبور الغابات النفضية. بوجه عام لم يعد هذا هو الحال منذ وقت طويل في أي مكان كما لم يعد ينظر إلى أعلى، إلى السماء باستثناء تلك المرة التي قادته وظيفته إلى بلد يعاني من حرب أهلية عندما كانت تسقط القنابل على أهداف بعينها في الليالي ذات النجوم الساطعة. وظيفة أم لا، كانت نظرته في فتره ازدهاره حاسمة على مستوى بصره.

حدث الشيء نفسه مساء يوم صيف عندما صعد للغابات النفضية، ولم يقابله أي إنسان وكان يمسك قبعته في يده. من الممكن أنه كان طريقًا سامقًا، وكالمعتاد كان يرى على مستوى بصره ما كان يقابله هناك على أرض الغابة فجأة (حسب كلامه لي لاحقًا). كان هذا مستوى بصر لم يلاقِه أبدًا ولا مرة واحدة. لا شيء يستحق الرواية. تسلل مثل شيء بين رجلي دولة، بين فنانين وليس شيئًا مصيريًا بعيدًا عن قصة البشرية، أحيانًا بين رجل وامرأة (ليس في روايات الكاتب البلجيكي جورج سمينون[12]) شيء لا يوصف مثله، أصابه هو -محامي الجنايات- أكثر من مرة على قدر المساواة مع المتهم ولا يزال..

12- ولد في فبراير 1903 وتوفي في سبتمبر 1989. ويعد من أغزر الكتاب تأليفًا. كتب 193 رواية و158 قصة قصيرة. والكثير من السير الذاتية والمقالات. وهو الكاتب البلجيكي الأكثر قراءة في العالم. (الناشر)

من الممكن أن أصف الآن مستوى البصر «نعم، انظر إلى هناك» إلى الأمر، إلى الشيء الواقع أمام ناظريه، كان من الممكن وصفه في الوقت نفسه. لكن لم يكن له اسم أو على الأقل لم يكن ينطبق عليّ شيء في تلك اللحظة. حتى كلمات «شيء» أو «أمر» لا تنطبق عليه. قال لي صديقي: لا تضحك، ما وقع تحت عيني فجأة، لا، ليس فجأة اعتبرته للحظة شيئًا بلا اسم أو أعطيته اسم «كائن» في نداء هادئ بداخلي بصيحة «مرحا» قبلها، مثل بداية الجمل في روايات الكاتب النرويجي «كنوت هامسون»[13] «مرحا، كائن». ولا أنسى، فقبل الصيحة الساكنة خطر على بالي للتو أن أحكي الآن أمرًا حدث على نحو أكثر هدوءًا وحدث هكذا «الآن!».

«هيا، انظر هناك!» كان هو من أطلق هذه الصيحة، وكأنه كان في انتظار هذه اللحظة، هذه الرؤية، هذه المقابلة، هذا اللقاء دون أن يعرف. لكن منذ متى؟ لزمن لم يتمكن من حسابه. حيث قال: «قبل أزمنة بعيدة». ومن الممكن أن يكون هذا قبل مولده أو منذ أمس. لم يبالغ حتى أمام نفسه كما وقف فجأة أمام أولى فطريات

13- صاحب الرواية الشهيرة (الجوع). ويعد واحدًا من أعظم الكتاب في القرن العشرين. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1920. (الناشر)

البوليط[14]. عبارة عن فطر كبير للغاية نما باستواء بلون بني ضارب إلى الحمرة.. ساطع ليس له قوقعة أو حتى قبعة مزدانة بحيوان وجانبه السفلي بلون أبيض ناصع. هل يشبه صورة في كتاب مصور؟ أكثر، بل قفز من مملكة الحكايات الخرافية وقصص الحيوان. موجودة بالفعل كجزء أو عنصر من الحقيقة تكشف في الكائن الخرافي كشيء حيوي مثل شيء «من الممكن العثور عليه على مستوى النظر» وكما كتب لي لاحقًا:

«كان يعني بالنسبة لي شيئًا آخر، أكثر من أسد بين الأشجار من الممكن رؤيته عند الاقتراب منه. أحد أحلامه المتكررة منذ صغره أو لنقل كأنه وقف فجأة أمام الفرس الخرافي بقرن واحد الذي لا نعرف أصله، وجزء أساسي كما في أسطورة الصياد والقديس اللاحق الذي قابل الوعل في الغابة العميقة بصليب في قرونه المتشابكة. كائني الخرافي الأول على الإطلاق والأخير أيضًا على كل حال، لم يكن بينه وبين أحد حيوانات الأسطورة قاسم مشترك على الإطلاق. كان جزءًا وعنصرًا إضافيًّا ليوم مشرق. وبدلًا من التشكيك في الحقيقة، وضعها في دائرة الضوء ومثل حلم الأسد المتسلل الذي حاول شدي من قدمي على الأرض، بل ثبت من الأرض وفي الوقت نفسه عزز من ضوء النهار، كائن

14- جنس من الفطريات اسمه العلمي Boletus ويتبع الفصيلة البوليطية. ومعروف باسم أحمر الرأس. ويتراوح قطر قبعة الفطر من 5: 20 سم. ويتميز بساق ممتلئة وطويلة تصل إلى 22 سم. (الناشر)

خرافي زاد من شعوري بحقيقة اليوم وهو أمر غير متصور عند مقابلة الفرس بقرن البادي من الأرض، علاوة على ذلك لم أرَ حتى اليوم شيئًا حيويًّا مثله. ربما ما كان لدقات قلبي أن تكون أسرع إلا بسببه حتى النظر للأسد وللقوس والسهم أو ما وضعه الصياد على الوعل، سواء هذا أو ذاك. لكن صدقني أمام أول فطر بوليط لي مع أكثر من نصف عمري خفق قلبي بصوت أعلى للغاية. سواء صدقتني أو لا، خفق قلبي كما لم يحدث من قبل».

لكن كيف هذا؟ كيف لم نصادف أبدًا ملك الفطر ونحن قد نشأنا في منطقة غنية بالغابات ومنذ نعومة أظافرنا كما كان يقال لدينا في السابق، و"نتفحص دواخل الفطريات" بحثًا عن أنواعها القابلة للبيع، الفطريات ذات اللون الأصفر حيث نحبو ونزحف إلى أكثر قمم الغابات الإبرية الواقعة في الخلف والأعلى؟ لا، ولا حتى مرة واحدة. أو ربما ظهر أحدها ذات مرة مثل تلك المرة في الطحالب اليابسة بازغًا من بقايا أوراق التنوب الرمادية والأوراق الإبرية المتساقطة. هل كان لافتًا أكثر للانتباه من أشجار العام الماضي ذات اللون البني المائل للحمرة؟ ومثل شيء أو شخص واضح وظاهر أغفله الطفل في عصره كل مرة؟ نعم، ربما أو بالتأكيد. لكن كيف من الممكن توضيح أن الطفل مع كل الباحثين الآخرين عن الفطر لم يروا قط فطر البوليط ولو لمرة واحدة حتى عصابة لصوص الغابة؟ لم يُرَ سوى اللون الأصفر المعتاد أمام السلال وغيرها من الأوعية لمنافسيه، أم هل كان ثمة مخلوقات

خيالية مختفية أسفلها بحيث لا يجب أن يراها أحد. لكن لماذا لم يحتفظ في ذاكرته عن ممر مستودع الفطر أسفل الوادي بشيء، سوى الفطر العائم باللون الأصفر والصناديق المكدسة منها؟ زاوية غامضة بلا نور، حيث سقطت الملوك منزوعة الجذور. هل هي مخصصة لسوق معينة؟ لكنه لم يرها في الأسواق أو ربما لم يذهب للأسواق لفترة طويلة، ربما هي من الفواكه الغريبة القادمة من أعالي البحار والمعروضة في محال البقالة الشهيرة.

على الرغم من ذلك عندما أصررت أمام صديقي على أنه يبالغ بشأن معايشة أول فطر بوليط له وهو في سن الخمسين تقريبًا أجابني: «ماذا كان الوضع معك آنذاك في حكايتك عن «التكرار» وأين انطلقت وأنت شاب من وادينا المطوَّق وعبرت الجبال السبعة صوب الجنوب وتعثرت عند منحدر الجبل السابع والبحر أو تكوينات القراس الجيرية. وغنيت ترنيمة هناك أمام سعف النخيل -أم كانت شجيرة تين أو الأكثر احتمالاً مجرد ورقة تين متحركة- عن «حادثة شجرة التين الأولى»؟ مدحت نفسي على أول «فطر بوليط» لي خاصة أنه حدث غيّر حياتي». (في الوقت الذي جعلني فيه صديق طفولتي أصل لمثل هذه الإجابة لم يكن يعرف أو حتى يشعر إلى أين سيهيم على وجهه بحياته المتغيرة كنتيجة).

في تلك اللحظة جثم أمام الفطر الكائن على حافة الطريق

الصاعد للجبل، على عكس كل الأشياء الأخرى والنباتات والأشجار العالية لا تحركه رياح الصيف ثم جلس في الأوراق بجانبه غير مكترث بملابسه التي ينزعج إذا أصابها زغب في أي موضع آخر. ودومًا دون قصد يبعد نظره عن الشيء إلى المكان المحيط مثل من يطلق شعاعًا لمسافة بعيدة ببطء وبالتساوي في دوائر مستمرة، وما كان يجب أن يراه هنا وهناك رواه لنفسه في الوقت نفسه في صمت تام. شجرة توت عليق كانت مليئة بالتوت الضارب للحمرة لكنه لا يزال غير ناضج، بينما في داخل الشجيرة يوجد توت أسود وهذا يعني أنها نضجت. أمر غريب! تلك الثمرات التي لم تصلها شمس الصيف قد نضج نصفها في الظلام. أحد ضفادع القزم التي تحولت بداية الصيف من طور يرقان الضفادع من دون سيقان لتصبح ذوات أربع أرجل وخرجت من البحيرة الصغيرة بالآلاف إلى الغابات الكائنة على التلال كمكان حياتها المقدر لها. من يعلم كيف سيكون مكان حياتها الدائم. أمر غريب؛ قفزت، لم يكن حجمها أكبر من نصف ظفر أصبع صديقي ومن الممكن أن تخطئ بها وتعتبرها عناكب أرضية تجري هنا وهناك وتبدو مثل حيوان دقيق بسبب قفزها وكأنها خفيفة مثل الريشة، تثير دوامة من حبة رمال ولا يبقى على قيد الحياة سوى ضفدع واحد من بين آلاف. أحد أشجار السنديان النامية على جانب الطريق كانت منتفخة بنوع من الورم السرطاني أم هل كان ذلك التمثال الخشبي لعملاقة أوشكت على الولادة؟ مجموعة من سائقي

دراجات الجبال كانوا يدفعون درجاتهم لأعلى. وكما كان جالسًا محنيًّا أمام الفطر بعفوية فأغفلوه هم أيضًا بدورهم (لكن من يعرف؟) حدث لأول مرة أن هؤلاء الغرباء ألقوا عليه التحية وهذا ليس لأنه يرتدي حلة ورابطة عنق، رد لهم التحية أم أن تبادل التحية لم يتم بشكل متزامن وتم بشكل بديهي مثل أي شيء؟ مع مثل هذا الاكتشاف الثمين حدث به شيء واحد عبر عنه بمقولة «أنا هنا، أنا هنا معها!» أو لم يقل سوى كلمة «هنا» كما لم يحدث من قبل.

فيما بعد تمدد إلى جانب الفطر، وكالمعتاد عند وجوده على أطراف الغابة كان ينصت ولكن دون قصد في الحقيقة. نما إلى سمعه كما يحدث أثناء السير وإلى وعيه وتفكيره أو أيضًا توقف في مكانه صوت الطرق وصوت آلة النشر.. ليس قريبًا وليس بعيدًا من المباني الجديدة المتزايدة حول البحيرة الموجودة في المكان. الدوي الدائم في زرقة السماء.. دوي هادئ؟ نعم دوي طائرات الركاب وتضاف لها زمجرة متقطعة لطائرات الهليكوبتر المحلقة من المطار العسكري القريب أو المتجه ناحيته. هل يضاف إليها؟ نعم. لم يكن من الممكن أن يحدث شيء للركاب هناك أعلى في المجال الجوي، ليس الآن ليس في هذه الساعة بأي حال من الأحوال، ليس أثناء هذه الرحلة الجوية. وخرج من الطرق السريعة وطرق الضواحي السريعة خارج الغابات

صوت أزيز وزمجرة وطرق، لم يُسمع بهذا القدر من قبل وبنفس القدر كان أيضًا صوت الأبواق وحتى صفارة الإسعاف والشرطة وغيرها من أصوات الصخب القريب والبعيد، بدرجات متفاوتة بنفس قدر الصفير المسموع في أول مرة لغابة الصيف النفضية في قممها، الطرق المتجاورة والصرير والجرف والعصر وحتى الصفير والنفخ هنا وهناك مرة أو عدة مرات أثناء هبوب الرياح فوق الصليب أو عبر الأفرع المتتالية، وفي الوقت نفسه كان الشر الموجود في العالم في الخارج -افتحوا آذانكم لأصوات الصفارات وصوت الدوي الأخير- يحدث وصار وشيكًا الآن.. والآن، بالنسبة لي ربما كان ليحدث ما هو أسوأ. لم يحدث له مكروه في تلك اللحظة وهو مُستلقٍ على الأرض كما لم يحدث لزوجته وطفله الذي لا يزال تحت قلبها، فالفطر بجانبه كان يجلب الحظ له، لهما كلاهما، بل لهم هم الثلاثة.

لم يستطع صديقي أن يتذكر فيما بعد الكثير عن كيف جمع أول فطر بوليط له والذي كان له مسميات عدة مثل «hong» و«jurček» و«vrganj» و«cèpe» و«boletus edulis». أكان هذا جمعًا حقًّا؟ أم تنقيبًا؟ أم انتزاعًا؟ أم سلبًا؟ أم انتزاعًا من الأرض؟ ما استطاع أن يقوله هو أنه مشطه لكن دون البحث عنه، هل في المكان المحيط فطريات بوليط أخرى. من المؤكد أنه لم يضع الكنز في أحد جيوب حلته أو أخفاه في قبعته، لمواصلة الطريق أعلى وأسفل وهو متوجه إلى المدينة، بل حمله بشكل ظاهر في

يده التي كان يمسك بها القبعة في الوقت نفسه وتحرك دون أن يغير وضعية جسمه، وفي ساعات المساء الباقية حتى الليل إلى الهدف المتفق عليه مع زوجته. نزلا من حافلة ضاحية المدينة واستقلا مترو الأنفاق ثم في النهاية سارا على الأقدام. ولم يلحظ أي إنسان ما كان يحافظ على اتزانه بجانب القبعة أو في حافتها من خلال التزاحم ويناور وكأنه ينقل شيئًا خطيرًا للغاية.

كنز. أكانت هذه عملية نقل لكنز؟ في الحقيقة كان الأمر بالنسبة له في تلك الساعات الصيفية وكأنه أحلام يقظة من وقت مبكر، حيث وجد كنزًا كان يبحث عنه.. كنزًا يستطيع به أن يمارس السحر وأن يرضيه حتى لو كان الكنز شيئًا يختلف عن تصوراته، وهو طفل. آنذاك تخيل الكنز الذي كان ينتظره «لمن أقول هذا؟» شيئًا لامعًا، شيئًا من المعادن، من الأحجار النفيسة، شيئًا صلبًا وغير قابل للتلف، شيئًا ماديًّا ملموسًا. والآن الكنز الذي حدده لنفسه.. الكنز الذي انتظره طيلة الوقت دون أن يخطر على باله. كان شيئًا من الوهلة الأولى يابسًا للغاية وملموسًا لكنه مرن ولدن وصار أكثر ليونة، شيئًا قابلًا للتلف بوضوح وبدأت ليونته الأولى تظهر ورائحته التي تبدو مثل «الجوز» كما كان يُقال، نقي الرائحة، «رائحة» لا تنتشر خلال رائحة المدينة، بل تتجاوزه بشكل متناقض. معايشة شيء زائل مثل هذا، ككنز ثمين. أليس هذا أمرًا طفوليًّا؟ أجاب صديقي بكلمة «لا».. صديقي الذي كان على حافة الهوس التام بالفطر لسنوات وعشرات السنين لاحقًا.

عندما عرض الكنز على زوجته في البار حيث تواعدا على اللقاء -لم يكن الأمر قد لفت انتباهها طوال الطريق- فتحت المرأة التي أوشكت على الولادة عينيها من الفزع. ارتعشت هي وجنينها في الوقت نفسه. كان يجب أن يقنعها أن تمسك الفطر -الذي كان لا يزال جميلًا- في يدها. حيث كانت مظلة الفطر تتلألأ بضوء قطرات الندى الأخير واللحم أسفلها أبيض وكأنه قد خرج للتو من أعماق الأرض إلى النور. أبعدت الشيء عنها وحدقت به بقدر أقل من الإعجاب وبقدر أكبر من الشعور بالرعب وقالت «ما أقبحه!» ولم يكن مجديًا أن يلفت انتباهها إلى المكان الأفتح في اللون البني الضارب للحمرة للمظلة، والذي كان على شكل ورقة التنوب التي كانت فوقه. فضلًا عن أنها من نفس المنطقة، امرأة من سكان القرية المجاورة.

كان وصول نادل البار هو ما دفعها للتفكير في أمر آخر. حدق النادل هو الآخر بعينيه عند رؤية الفطر وكانت سعادته أكبر من الدهشة ومن الخوف الذي شعر به أيضًا. حيث قال إنه توجه في يوم إجازته إلى الغابات لكن هبت الرياح وخاصة رياح غربية عندما تهب لم تقتلع الفطريات من الأرض. لكن كيف من الممكن أن يصبح نادل البار ولا سيما في مدينة عالمية باحثًا عن الفطر أو حتى عارفًا به؟ هل أصله من المنطقة التي يعود إليها ضيفاه؟ لا، على الإطلاق فهو من سكان المدينة الأصليين، كل ما في الأمر

أن الفطريات تقريبًا كلها والقابلة للأكل منها على الأقل هي عشقه، منذ أن اصطحبه والده ذات مرة وهو صغير لم يكن حتى قادرًا على السير على قدميه بعيدًا عن أشجار الدلب المعهودة في المدينة إلى أشجار البلوط والكستناء الحلو والزان والقضبان.

والتقط الفطر الثقيل إلى حد ما بخفة يد بين إصبعي الإبهام والخنصر لا مثيل لها كما حُفرت في ذاكرة صديقي، وقطع بواسطة سكين صغير -يقطع بها قشر الليمون وشرائح البرتقال أو أي شيء آخر- الفطر إلى قطع رفيعة للغاية مفلطحة ليس من مظلة الفطر بل من الجانب، من الجزء السفلي المكتنز باللحم. وما فعله هو أنه أرشد الاثنين عبر النضد وسألهما هل تسمعان صوت اللحم عند التقطيع. يا له من صوت يشبه النغم، هل تسمعان؟ وهل تريان النقاط الصغيرة التي تسيل من منطقة التقطيع، لا، بل تفيض منها. حسنًا، هل تريان التقطير، الفيض والتقطير الصافي وبلا أي لون، أين سبق وأن رأيتما قطرة ماء بهذا الصفاء والضياء من قبل؟

كان نادل البار قد قدم للزوجين طبقًا من دوائر الفطر البيضاء الشفافة تقريبًا وبها خِلات الأسنان. تذوق صديقي وزوجته الطبق دون أي إضافات. تذوقا دون تفكير، السيدة في البداية، وأكلا على مدار الساعة الفطر بالكامل حيث كان تناول الطعام شهيًّا حتى النهاية. لم تستيقظ حاسة التذوق لدى الاثنين بهذا

الشكل من قبل. لم يسبق وأن استمتع صديقي بالتذوق هكذا. أي إنه تمكن بمساعدة الأكل من التفكير جيدًا والتفكير في الخير والشعور به.

ماذا عن طعام العشاء؟ فمثل هذا الطعام فتح الشهية لشيء آخر، علاوة على أن المرأة الحبلى تشعر بالجوع دومًا، وكانت ترغب في المزيد من الطعام قبل أيام من الولادة من وجبة لأخرى. وما أسفر عنه ذلك حيث تم تسليم فطر البوليط للمطبخ في هذه الأمسية في أواخر الصيف في المطعم حيث جلس الزوجان. لماذا حكى لي ذلك؟ هل لأنهما استمرا في أكل الشيء نفسه ولكن بطرق إعداد مختلفة وفي شكل آخر؟ هراء، بل كان الأمر انتزاع قيمة كنزه الذي رأه بعينيه وهو يسلمه. فهذه الفطريات لم تكن أكبر أو أجمل من فطرياته التي كان يجمعها في الغابات المشابهة الأكثر بُعدًا عن المدينة الكبيرة.

لكن كان عددهم كبيرًا، مكدسين في صناديق فواكه وبطاطس في غير موضعها. تم جرها لأنها ثقيلة للغاية لدرجة أن رجلين كانا يحملان الصندوق الواحد، وكان يبدو أن العلب والصناديق الخشبية الممتلئة ستظل بلا نهاية بدءًا من عند المدخل إلى ما هو خلف الباب المتأرجح المؤدي إلى مطبخ المطعم. من المطبخ حيث وزن أحدهم الفطريات. كان هناك من يطلق صيحات استحسان مستمرة من أعداد بالكيلوجرامات، ثم انتقلت إلى

قناطير والاستماع إلى كل دهشة. الفطر ليس شيئًا، لا يريد أن يبقى هكذا؟ فقد تحول إلى وحدة قياس، إلى مقياس كمي وعندما ظل الباب مفتوحًا على مصراعيه في النهاية حتى الانتهاء من تفريغ شحنة عربة النقل، هل كانتا عربتين؟ رأى صديقي من على طاولته (حيث كانت تجلس زوجته وتواصل الأكل والبلع دون أن تمضغ الطعام ولم تفهم شيئًا من الأمر برمته) كومة كبيرة من فطريات البوليط مبعثرة على بلاط أرضية المطبخ بقدر أقل من اللامبالاة، لأن أحد الطباخين المساعدين جرف بقايا التربة والرمال والسراخس والحشائش من على الفطر بخرطوم ماء مضغوط. شعاع قصير. لا يوجد سوى بلل سطحي. لم يفقد عدد قليل من الفطريات أثناء التفريغ على بلاط المطبخ مظلاته أو رؤوسه بل وذبلوا بسبب ضغط الماء. كانوا في عينيه من على مسافة فطرياته.. آلاف من فطر البوليط التي احتفظ بعضها بشكله والبعض الآخر لا.. كميات كبيرة وقناطير كلها عبارة عن سيقان بلا رؤوس، تبدو حرفيًّا مثل الأحجار.. كومة من الأحجار الباهتة الثقيلة وعديمة القيمة أو على الأقل قليلة القيمة. هل هذا كنز إذًا؟ وهل كانت فطرياته القليلة كنزًا؟

لم يكن زوال السحر مستمرًّا. بل استمر لأمسية واحدة. في الصباح التالي عاد مفعول السحر من جديد وخاصة عند الاستيقاظ في لحظات الانتقال من نصف النوم. أثر من خلال غياب أحد أدوات السحر. سألت «كرغبة» «أجاب صديقي: «لا»

كحنين وشوق أو إذا وافقك أكثر كرغبة في المغامرة». وعلى نحو مغاير عما يحدث غالبًا في الصباح صار نشطًا على الفور، دفعته الرغبة في المغامرة إلى العراء والتوجه إلى الغابات وليس إلى مجرد حافتها. كان لديه وقت طيلة النهار فقد أنهى عمله في المحكمة الدولية حتى إشعار آخر.

2

لكن آلام الولادة التي فاجأت زوجته منعته من الانطلاق. ابتعد قليلًا وربما انتابه شعور بالضيق تجاهها، حتى ولو أن الأمر استغرق لحظة أولية بسيطة، ثم عادت له روح «أنا المنقذ» وهو الأمر الذي لم يكن مناسبًا في هذه الحالة. دون عجلة أو قلق توجها سويًّا إلى الغرفة المحجوزة في المشفى، وعندما كان يستلزم إنقاذ الأم وطفلها من خلال سلسلة من الظروف المتناقضة -التي لا يهم شرحها هنا- لم يكن هو من قام بالإنقاذ، أقصد الزوج والأب. فعندما صار إجراء عملية جراحية أمرًا حتميًّا، كان هو يجوب الشوارع الجانبية دون أن يشعر، وأخذ ينصت للصخب القادم من استاد كرة القدم القريب حيث كان يحاول تخمين أي الفريقين أحرز الهدف بعد كل صيحة. عند عودته للمشفى أصيب بالذعر ثم شعر بالارتياح ثم الفرحة وفي النهاية عاودته حالة الذعر التي استمرت طويلًا فيما بعد.

يتسبب مثل هذا الذعر في حالة من النسيان، وبالتالي نسي صديق طفولتي الفطر بل وكل الفطريات. أو ربما لم ينسَها، لكن ذاك الشيء صار ثانويًّا أي لم يعد له وجود في مخيلته..

زوجة وطفل ثم العودة للعمل كمحام، حيث كتب لي فيما بعد أن الحيوية قد عادت له «بفضل الطفل» وأصبحا «كل شيء بالنسبة لي». لكنه كان يصطحب المولود إلى الغابات في فترة الخريف، حيث كانت زوجته تتجنب زيارتها لأنها كانت تعاني من حساسية بسبب هواء الغابة والأوراق الذابلة المتطايرة وشباك العناكب. كان يلقي نظرات عابرة على جوانب الطريق وإلى الأماكن الواقعة بين الأشجار. لكن لم يسبق له في أي مرة أن يجد الكثير منها هكذا، وكان هذا يناسبه على الأقل عندما كان يحمل الصغير على ذراعه ويخرج من الغابة.

مر عام.. مر عامان. ثمة تأثير وحيد صغير «للكنز الذي عثر عليه» (صار بين علامتي تنصيص) ألا وهو أنه أطلق على الطريق الصاعد لأعلى الجبل الذي صادف فيه فطر البوليط في إحدى أمسيات الصيف اسم «طريق ما قبل الولادة» واحتفظ دون قصد بهذا الاسم حتى اختفاء صديقي.

ثم حدث المزيد بعد ذلك. توجه المحامي بملفات القضايا الجنائية إلى الغابات القريبة من المسكن. تخيل أن الهدوء هناك حتى وإن لم يكن كاملاً والمصحوب بصوت دائم للأوراق والصخب المتسلل القادم من المدينة الكبيرة القريبة، سيثمر عن إضافات حاسمة تساعده في تنقيح مرافعاته للدفاع عن المتهمين، ولكنه سيساعد أيضًا في فترات راحة مهمة وفراغات وتنويعات. هل هذا

تخيل؟ هل هو محامٍ غريب؟ غريب، ربما. إلا أن ما بدا في البداية تخيل صار مع الوقت حقيقة وواقعًا، حيث صارت مرافعاته ناجحة وأطلق سراح كل متهميه دون استثناء تقريبًا.

كان المكان -الذي يجلس عليه على الأرض- خاويًا وعلى شكل مستدير، حيث كان يجلس مستندًا إلى جذع شجرة زان، وكانت قشرة الشجرة ناعمة للغاية. اعتاد الجلوس مرتديًا الحُلة ورباط العنق والقبعة بجانبه. لم يكن المكان كبيرًا للغاية لسقوط شعاع ضوء منتظم، لكنه كان كبيرًا ومستديرًا وهندسيًّا للغاية بالنسبة لحيز بيني عابر. صحيح أنه كان مكانًا بينيًّا، لكنه كان مكانًا يعود لسنوات كثيرة ماضية ولا نعرف صاحبه. هل أصحابه حطّابون اتخذوا منه معكسرًا سريًّا لهم منذ وقت طويل؟ على كل حال كان فنيًّا. حيث لم يجد نفسه بداخل الغابة بل على بعد خطوات من حافتها التي كانت عبارة عن ممر عريض فارغ وأولي لنقل الغاز أو أي شيء آخر. على الرغم من ذلك كان يجلس المحامي بمفرده وكأنه في مكان مستدير تصوره مثل المسرح الدائري المفتوح من العصور الوسطى. كان متاحًا له وحده ومحظورًا على «الغرباء» في الوقت نفسه. ويبدو الأمر وكأن الدخول للمكان ممنوع بسبب حزم الأفرع اليابسة المتراكمة بارتفاع سياج خشبي. لم يكن التسلسل مقصورًا عليه فحسب، بل كان المكان مرئيًّا له وحده بوجه عام.

صيف آخر.. ولكن هذه المرة في يوم في فترة النهار ، يوم مشمس (أو غير ذلك) وبعد دخول المسرح المفتوح على سفح شجرة الزان حيث كان معسكر عمله، وجد في انتظاره مجموعة منتظمة من الكائنات، نعم صاروا وكانوا موجودين مرة أخرى في التو واللحظة. لم ينسها مع مرور الوقت، بل بدا له أنها كشفت عن نفسها له. حدثها بعفوية قائلًا: «ها قد عدتم ثانية!» لتجيبه بقولها: «ها نحن عدنا ثانية!» كانت موجودة بين أفرع شجرة الزان من العام السابق وبين قشور البذور المشعرة الفارغة. كانت بالعشرات.. كلها بالطول نفسه ومستقيمة مثل الشموع وجميعها واقفة على سيقان متساوية في الحجم، ممشوقة وغير منتفخة مثل فطر البوليط الواقف منفردًا في موكب استعراضي حول أشجار الزان حسب ما تعلم وأفصح عاشق الفطر فيما بعد بقوله: «عندما تنمو هناك وبشكل نادر وتنجح في اختراق الطبقة الخانقة للغابة والمعادية للحياة.. تلك الطبقة المكونة من أوراق الزان وبذوره المسننة، اسم على مسمى!».

كان هناك الكثير منها وسرعان ما توقف عن حصر عددها. لم تكن الكمية هي السبب الرئيس، بل بدا له الحصر بوجه عام غير مناسب لهذا الرونق والجمال. كانت مسألة الوفرة من الأمور النادرة في المكان. حيث لم تصادفه مرة أخرى على الإطلاق

وغالبًا ما كان يسمع من آخرين أنهم صادفوا كميات كبيرة من الفطر. حيث قال: «لدرجة أنه كان من الممكن حصدها بمنجل». كان يعلم أن ثمة أناسًا لا يعرفون الفطر بمثل هذه الأقوال كما عرفها هو على كل حال.

أمر غريب آخر أو لم يكن كذلك. حتى عندما يجد أماكن نمو الفطر التي عرف عنها أنها طيبة المذاق لم تكن بكميات ولم يدركها «ككتلة»، كما لم ينظر لنفسه أبدًا أنه «صديق للفطر» حيث لم يبُح بالكلمة أبدًا، ومع الوقت صار يسمعها من زملائه من علماء الفطريات باستياء متزايد.. «ماذا، علماء فطريات؟» لا، فهؤلاء الذين يتحدثون عن اكتشفاته بلغة الكيلوجرامات التي يجمعونها «في دقيقة» وفي «دلاء» ويحملونها من الغابة ليسوا بعارفين للفطر أو حتى علماء مثله، على الرغم من أنه كان يدقق في فحصها مع مرور الأحداث، وكان يحضرها عرضًا ولكنه لم يكن عالم فطريات بل مجرد عاشق للفطر كما كان يقر بين الحين والآخر.

لوقت طويل حقًّا -على الأقل السنوات العشر اللاحقة للصباح الذي قضاه أسفل شجرة الزان- ساهم اهتمامه بل وعشقه لعالم الفطر، في توسيع أفقه بدلًا من أن يحد منه. لم يطفئ الاهتمام والشغف من نور أفقه كما بدا لي، بل جعلاه مشرقًا ولامعًا. كان

مثل هذا النوع من الإلهاء والتسلية مفيدًا لعقله أي محل عمله وإن لم يكن مقصورًا عليه. عرف ذلك سابقًا في الساعة اللاحقة لكشفه الكبير بعد أن جمع عشرات من فطر البوليط بعضها فوق بعض، الواحد تلو الآخر بهدوء، حيث لفها بهدوء من تحت الأرض ولكل منها لون مختلف (من باب المعرفة). صارت دراسة الملفات والتدوين والربط وتقديم البراهين والتشكيك في الأدلة وخاصة التفكير المشترك واستخلاص النتائج وفي النهاية اتخاذ الرأي أسهل له في ذلك المكان عن أي مكان آخر، حيث كانت تخطر الأفكار على باله في التو واللحظة. كانت نظرة واحدة إلى الهرم باللون البني الضارب للحمرة الواقع بعيدًا عن مقدمة حذائه كافية كي يدرك ما كان يجب فعله.

لم يخبرني عاشق الفطر أي شيء عن مصير الكشف الثمين الحديث في نهاية ذاك اليوم أو ما إذا كان قد اصطحبه للمنزل لتقديمه على المائدة أو تقطيعه إلى شرائح كي يجف أو أهداه لأي أحد. لكن ما أعرفه أنه منذ زمن طويل كان قد تمنى العودة بشيء خاص إلى باب منزل أبويه في القرية. لكن لم يظهر هذ الشيء الخاص أبدًا، فكل مرة يعود إلى منزل أبويه خالي الوفاض. لكن ها هو أخيرًا يقف على عتبه البيت ومعه شيء خاص.. شيء أراده لنفسه فقط (مرحا، ها هي عينا الطفل تلمعان) والأمر الذي كان أقوى هو تلك النظرة، أي النظرة الأولى لما ستتم ملاحظته أو ما

تمت ملاحظته بالفعل. وظل عالقًا في ذاكرته بوضوح تام بينما لم يعد لكل اللحظات الأخرى في ذاك اليوم أي وجود.

وثمة أمر آخر كان عليه أن يرويه.. أمر أصابه هو نفسه بالدهشة ألا وهو أنه كان قد عزم أمره بالفعل على الذهاب إلى السينما مساءً لمشاهدة فيلم وكان متشوقًا لذلك. لكن بسبب تأثره الشديد بما شاهده اختفت رغبته في مشاهدة الفيلم أو بدا الأمر له وكأنه قد شاهده بالفعل هناك في الحيز البيني. صحيح أنه ذهب للسينما بعد ذلك. إلا أن ذلك لم يكن ليقارن بالثانية التي عايشها ذاك الصباح حسب قوله. كان الوقت طويلًا في السينما بالنسبة له وقال إن هذا لم يكن يعني أن الفيلم أصابه بالملل بل كان الوقت طويلًا للغاية، مثل الوقت الذي مر به منذ طفولته وربما منذ بداية الحياة على الأرض بوجه عام. ذات مرة بعد الدراسة بفترة قصيرة راوده حلم يقظة أن يصير كاتبًا مثلي، ثم كتب رواية بالفعل أطلق عليها اسم «حياتي» وكانت عبارة عن جمل قليلة وفقرة وحيدة قصيرة وجاء سطرها الأخير على النحو التالي: «صار الزمن طويلًا على الأرض بالنسبة له». في دور السينما وحدها -حتى عندما يكون الفيلم مملًّا- كان الوقت بالنسبة له طويلًا للغاية. لكن منذ ذاك الصباح صار الوقت هناك طويلًا للغاية في عتمة مفعمة بالثقة، وبعد ذلك بعواطف متصاعدة لعشقه للفطر، وقت طويل يكافئ الوجود البعيد عن عالم الفطر على الأرض.

هذا ما حدث مع صديقي قرابة نهاية حكايته أي قبل اختفائه وأنا أيضًا. لم نعد نصل لنهايتها نحن الاثنين. فجأة شَفاه شغفه مما أطلق عليه «مرضي بالوقت» ويبدو أن شفاءه لم يكن ظاهريًّا فحسب، فقد انتقل الشعور بالزمن المتعافي بفضل الشغف لفترة إلى حياة يومية كانت بالنسبة له سابقًا عبارة عن ساعات تأبى على النهاية.. حياة متعبة ومقفرة تمامًا في لحظات بعينها. جعله هذا الشغف يشعر أن وقته على الأرض لم يعد طويلًا أو إذا كان كذلك ذات يوم فصارت رغبته في مروره أقل. لم يجعل الشغف الوقت بالنسبة له يمر أسرع أو أكثر إمتاعًا بل جعله مثمرًا لفترة محسوسة. وبفضل شغفه ولا سيما بفضل خصوصيته صار الوقت على كوكب الارض ثمينًا بالنسبة له وبدا زمن حياته قد تحول إلى مادة. فبينما كان يذهب للسينما كي يقصر من زمن اليوم وليتنفس الصعداء في نهاية اليوم قائلًا: «ها قد حل الليل». صار اليوم بأكمله غير كافٍ بالنسبة له وهو يفحص ويبحث في الغابات. حاز على قدره في الغابات. صار «واثقًا» لأول مرة في حياته وكأنه لم يشعر «بالمواساة» من قبل. وهذه المرة داهمه على أعتاب دخوله إلى الغابة شعور بالتحرر مثل ما يحدث قبل حدث كبير أو يوم عظيم. ثم جاء دور العثور والملاحظة حيث أشبع الحديث الداخلي اللانهائي كما لم يفعل أي فيلم من قبل، أشبع المقطع المتكرر دون روح وأشبع الإيقاعات المعذبة

الخاطئة.. أشبع وأشبع وجعله هادئًا وأعاد السكينة.

صار الوقت شيئًا ماديًّا بالنسبة له في تلك الآونة وبدأ يتعلمه من جديد. فقد كان يحب التعلم في فترة طفولته وشبابه ثم أخذت رغبته الأولية في التناقص أكثر فأكثر. بدءًا من حد محدد أو غير محدد صار لا يرغب في معرفة أكثر مما كان يعرفه بالفعل. وها هو الآن تعلم دون إرادته، بل وداهمته المعرفة دون أي نية.

لكن تُرى أي معرفة؟ في البداية المعرفة بالفطر والبحث والأماكن والتمييز بينها والخلط بين الأنواع والهوس بها، وأعتقد أيضًا إعداد الفطر حتى لو أن هذا الأمر كان بالنسبة له أقل في القيمة.. لكن ما هي المعرفة الكبيرة التي أسفر عنها البحث عن الفطر أو الذهاب إلى عالم الفطر. ما كسبه (وليس المقصود المال) هو الانتظار والترقب. لن تختفي القصة ذات الصلة. علاوة على ذلك كان يفكر في شيء واحد بإلحاح شديد بتعلمه الجديد والذي صار رفيقًا له وتجاوز حبه للفطر.

على الرغم من نشأته في الريف لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبيعة، وهذا القدر القليل كان في مجمله هو الشيء الوحيد الذي احتاج إليه وخاف منه وهذا الأمر لم يكن حالة استثنائية بين سكان الريف. فمن بحث لآخر ومن «رحلة استكشافية» كما عايش

بشكل ملحوظ، لرحلة استكشافية زادت معرفته لما هو أكثر من أشجار الغابات ولا سيما جذورها وطبقات الأرض التي تتحرك عليها، الأمر الذي من الممكن أن نعتبره ظاهرة مصاحبة لشغفه المتأخر بالفطر. جير؟ طفلة جيرية؟ جرانيت؟ الشظايا، أنواع الرياح -انظر إلى نادل البار وسط المدينة- وتشكيلات السحب وطبقات غلاف الكوكب وأطوار القمر. في فترة نهاية «معرفته» المحددة ظهر كضيف شرف مثلاً في أحد المؤتمرات العلمية عن أبحاث الفطريات، حيث كان المحامي ضد الرأي السائد أن ضوء البدر يجذب الفطريات بقوة من باطن الأرض وكان يرى العكس أي إن الهلال هو السبب. حيث قال إن الفطريات تخرج من باطن الأرض في الليالي التي يختفي فيها ضوء القمر، أي في ضوء النجوم وحدها البازغة من السماء الصافية خاصة فطريات البوليط وأثبت ذلك بحكاية من الحكايات «التي عايشها بنفسه».

علاوة على ذلك كان ثمة شيء به جعله صاحب قدرة خاصة في البحث أو الملاحظة الدقيقة لكل الظواهر غير المألوفة.. شيء أطلق عليه أحد معلميه «النظرة المريضة». فقد كان صاحب نظرة منذ صغره للتناقض، أي الشكل الآخر الغريب في النسق العام الذي تشكل بسبب العادة اليومية، لذا ينتبه على الفور إلى اللون اللافت الغريب غير المسبوق ودرجة اللون النشاز.. الهندسة المتناقضة، الشكل الريشي الواضح وسط التداخل موحد الشكل،

الشكل المبقع المضيء، النموذج الموحد وسط كل ما هو غير موحد الشكل.

اتهم بأن معرفته المكتسبة حديثًا على خلاف معرفة سنواته السابقة هي معرفة غير مفيدة. علاوة على ذلك صار واضحًا له هو نفسه أن هذا التعلم الإضافي يشكل خطرًا على عمله، متمثلًا في نسيان ما تعلمه الذي يشكل ضرورة لنجاحه. لكن مع الوقت.. الوقت الذي صار ماديًّا أكثر فأكثر بفضل بحثه، عرف أنه لم ينس شيئًا من المعرفة المطلوبة لعمله في المحاكم بل صار أكثر وضوحًا ومنهجية على وجه الخصوص عن ذي قبل متأثرًا بمعرفته بالطبيعة. صحيح أنه نسي بعض الأشياء.. لكنها لم تكن إلا بعض الإضافات غير الضرورية، بل ساهم ذلك أيضًا في تفسير كل مشكلة قانونية. ربما كان توجهه لتعلم الجديد وجوهر الفطر الشامل وما جلبه معه غير مفيد على كل حال. كان يشعر بالإثراء في تلك السنوات.. في ذاك العقد وفيما بعد، ليس في الصيف والخريف وحدهما بل في الشتاء والربيع حتى إذا لم يتمكن من شراء شيء منها (أو لم يرِد) وهو أمر يختلف عن دخله في السابق من مستودع الفطر.

إذا تأملنا جيدًا فقد شعر أن الظواهر المصاحبة لعمليات البحث قد أثرته بقدر أكبر عن اكتشافاته. حيث صار قادرًا أثناء الصيف

على التمييز بين صوت أشجار البلوط -أحيانًا كان صوتها يشبه الدوي- وصوت أشجار الزان التي كانت أقرب للأزيز، وصوت أشجار القضبان التي كان صوتها أقرب لحفيف الأوراق عن هديرها. أما في الخريف فقد اكتسب معرفة كيف تسقط أوراق مختلف الأشجار. كيف بدأت الأوراق المسننة لشجر القيقب في المناورة أثناء سقوطها من أعلى لتستقر في طيران منزلق على الأرض بانسيابية، وكيف تسقط أوراق أشجار الكستناء الحلو - الأوراق الأكبر والأرفع في الوقت نفسه- أوراق على شكل قوارب، على الرغم من تحليقها في الهواء لفترة طويلة تأبى على الهبوط حيت تكتسب قبل لحظة لمسها للأرض دفعة من جديد فتتأرجح بخداع لأعلى، وكيف تتخلص أوراق السنط من الأفرع والغصون وتسقط فجأة ككتلة واحدة على الأرض في شكل مروحي -كل الأوراق المروحية- يتبعها بعض الأوراق المروحية المنفردة، حيث تبحر كل واحدة منها بعيدًا، بدلًا من السقوط سويًا وكيف.. تجولوا وشاهدوا بأنفسكم!

بدا أنه شاهد كيف تنفض أفعى جلدها في الشتاء على فرع خال من الأوراق، ورؤية شعاع شمس مائل للغاية في أحد الأيام الأولى من فصل الربيع، شاهد أيضًا سحلية جاثمة على منحدر من الطين الجيري بلون أصفر مائل لحمرة في الزاوية. وقرأ من تحليق الطيور من مختلف الأنواع اللحظة الآنية بدلًا من التفكير في أي

مستقبل لم يكن «ليجول بخاطره» في سنواته المبهجة كباحث عن الفطر، فكل ما كان يفكر فيه هو الحاضر وفقط. كان يقارن أيضًا الأنواع المختلفة من الطيران والتحليق وارتفاعها وفتراتها وعرف أيًّا من الطيور كان يحلق من بعض أصوات طيرانها. كما صادف أثناء رحلاته الاستكشافية في الغابات عددًا غير قليل من المخابئ، وأشكال أقماع القنابل، مليئة بالأفرع اليابسة والأوراق التي يعود عمرها إلى نصف قرن وبداخلها الخوذات الصلب والأوعية الرصاص. وشاهد في أماكن أخرى بقايا ثمار الكشمش الشائك وعنب الثعلب، من زمن أسبق بكثير حتى أثناء الصعود والهبوط داخل الأقماع وعند جمع التوت المزروع الذي صار يابسًا ومنكمشًا رفض معرفة أي شيء عن أي ماضٍ أو الشعور به بل التعلم من الحاضر والوقت الراهن فحسب.

كان بعيدًا للغاية عن صفته عاشق الفطر أو اعتقد ذلك. كان يعتبر شغفه -الذي كان في عينيه نقيضًا لحالات شغف ليست بالقليلة- شغفًا عقلانيًّا.. شغفًا ساهم في إثرائه وأثرى هو أيضًا آخرين ليس فقط ذويه بل آخرين بالصدفة وغير متوقعين. بدلًا من الانغلاق على المعاصرين الذي جربه منذ وقت بعيد -انظر إلى الانفصال عند الأطراف- فتح له شغفه فرصة لهؤلاء. وكيف كان له أن يخرج من الغابات باكتشافاته مثل أدلة حب؟



صار الحيز البيني حيث كان «يعسكر» -نفس كلمته مع الوقت- ويحضر مرافعاته مقعدًا «متزامنًا» -حسب كلمته- لمراقبته لمعاصريه. لم يكن بالطبع مقعدًا من المقاعد المرتفعة التي عرفها وأنا أيضًا من أطراف الغابة السرية، بل أماكن مرتفعة تمتد غالبًا حتى قمم أشجار التنوب للصيادين وحراس مناطق الصيد وأيضًا للعاشقين. وعلى الرغم من ذلك -على الأرض المستوية في الحيز البيني كأكثر أماكنه ارتفاعًا، حتى ولو لم تكن منطقة سيادته- عسكر وكأنه جلس عاليًا فوق الناس الذين استعمروا الغابة خلال ساعات عمله. وحدث أنه كان يراهم من حيث لا يرونه. من جانبهم بدا السياج أو السور المصنوع من الأفرع اليابسة الشائكة مكدسًا مثل سياج حشبي فصل حيزه البيني عن العالم الخارجي وجعله غير مرئي على الرغم من أن الطريق يمر على هذا المكان بينما كان ينظر وهو في الداخل بمقعده الكائن على مسافة تجاه الحاجز للناس المارين يمينًا ويسارًا على أنهم أشكال. صحيح أنه لم يحدد التفاصيل أو علامات مميزة لهم لكن كانت هذه الظلال أكثر تمييزًا لهم وتحدد صفاتهم بهذه الطريقة.

أطلق على هذا الطريق اسم «طريق ما قبل الولادة» حيث قابل أول فطر بوليط حيوي قبل ولادة طفله، ثم أطلق عليه اسم «طريق هجرة الشعوب». اعتاد وهو المحامي النهوض من مكان عمله

هناك في الحيز البيني والتوجه إلى الأشجار في الخلف لفترة قصيرة أو طويلة -لكنها صارت أطول مع مرور الوقت- ويبدأ البحث. تعرفون بالطبع عن ماذا كان يبحث. على الرغم من أنه لم يكن واثقًا أبدًا كان يجد شيئًا ما كل مرة. كل مرة؟ نعم، كل مرة. وكل كشف له كان يصيبه بالدهشة. شيء غير متوقع، مكان جديد، درجة لون، شكل، رائحة. وكل مرة تقريبًا كان يشمشم مصدرًا جديدًا مسبقًا. والمقصود بكلمة «شمشم» أي استيقظت كل حواسه.

وإذا أخطأ إحدى المرات كان يطلق العنان لتخيلاته وفي الوقت نفسه كان يتأمل الشيء الظاهر.. الغائب.. الناقص في المكان الخطأ بمزيد من اليقظة. وتحول شعوره بالضجر الذي استمر طوال حياته إلى إقامة مفعمة بالحياة. حيث قال: «هل أشعر بالملل؟ أنا؟ لا أشعر بذلك هناك على الإطلاق!».

عند العودة إلى مكانه في الحيز البيني لم يكن يتبادر إلى ذهنه العودة إلى العمل من تلقاء نفسه فحسب. بل كان يتعاطف مع الأشخاص المارة خارج السياج المكون من الأفرع اليابسة، الأمر الذي لم يكن أبعد شيء بالنسبة له في حياته حتى الآن. نعم، الناس خلفه الذين صادفوه، واعترف لنفسه أن كل ألفة عارضة وأن كل ظهور له مؤثر في المجتمع لا يقارن بانزعاجه وقلقه

الأولي المزمن من الناس حيث كان لا يكترث بهم وينعزل عنهم.

لم يشارك آنذاك تدريجيًّا فحسب حيث شجعه على ذلك عمله في الحيز البيني وصار منفتحًا بفضل حظه في الاكتشافات، بل صار جزءًا. حدث له، لا، بل أصابه مرارًا وتكرارًا أن يتجاهل شخصًا أو آخر في الخارج وهو في طريقه مثلما كان يفعل أثناء مروره بأطراف الغابة في السابق ليدخل في عالم أزيز وحفيف ودوي الأفرع والغصون، يتجاهلهم ككيان كامل بجلدهم وشعورهم وخصوصًا عظامهم ليدخل في عالم التأرجح والتداخل والانفصال والتلاقي لقمم الأشجار.

لم يتخلص من اضطرابه حتى تلك الفترة الآنية. مثلما كان يرى أمه جالسة على ماكينة الخياطة وهو طفل عند استيقاظه من مسافة لا يمكن اجتيازها، فيتألم من الصراخ الصامت من هذا الانفصال والتباعد المستعصي، ومثلما كانت تبدو له المسافة بينه وبين زوجته غير قابلة للاجتياز والعبور وهو أمامها، وعينه في عينيها وفمه في فمها فيصرخ عاليًا على الرغم من أنه في الواقع الساري كان كل حيز بينها ممتلئًا وربما زاد شعوره أكثر بالخوف -وإن كان سرًّا- من طفله. لم يتوحد أبدًا مع الآخر الذي كان يحتاج إليه هكذا من قبل ولم يكن ثمة أمر ملح عليه هكذا من قبل.. هنا أو هناك كي يختفي هذا الآخر أو تلك الأخرى في النهاية

في فعل المشاركة الذي ربما يكون مع شخص رحيم.

بالطبع لا. ما شعر به في تلك الآونة في الانفتاح والمرور على الأشخاص الذين لم يعودوا غرباء خلف سياج الأفرع اليابسة كان مختلفًا عما شعر به تجاه ذويه وليس له أي علاقة بالحب وبعيدًا كل البعد عن الرحمة. ما شعر به كان مجرد فهم وبالتالي ارتقاء أكثر شمولًا من الارتقاء الذي مارسه بسبب الوظيفة حتى الآن وفي حالات نادرة.. إدراك مفاجئ مهدئ أكثر وأقل تخويفًا للآخر، خاصة ماضيه وأصله وبعيدًا عما مر به وما لا يعرفه سوى الله من مواصلته لمشواره، لذا أفصح لي صديقي فيما بعد بوقت طويل عن كلمة «طريق هجرة الشعوب». سبق وأن لاذ الصديق -الذي تعثر توًّا خارج السياج ولعن بلغة غير مفهومة- بالفرار قبل سنوات من بلد يعاني من حرب أهلية، وتذكر أحد أقاربه الذي مات قبل وقت طويل وهو يقف أمام إحدى أشجار القضبان، قبل أن يمضي في طريقه وهو يتثاءب بصوت عالٍ مثلما يفعل المرء بعد حالة ذعر. حلم الصديق -الذي صلى في تلك الآونة له ونصب فخًّا لمن يتجنبه بتغافل- طويلًا بأن يصبح قديسًا.. أن يصير فردًا يبتعد من أمامه من يقابلونه -في منطقة أصله على الأقل- احترامًا وهيبة.

أحيانًا كان يرتعش داخليًّا من هجرة الشعوب تلك ويصاب بثقل بالغ في رأسه من الأشخاص الذين يواصلون هجرتهم، وكان

في السابق غير اجتماعي ومضطربًا. وغالبًا ما كان يترك الحيز البيني بعد الانتهاء من العمل -المتمثل في الجلوس لكتابة مسودة لمرافعته والذهاب للبحث عن الكنز الذي كان يؤثر على كتابة المرافعة حيث كان كلاهما عملًا بالنسبة له- ليعود إلى بيته سيرًا على طريق هجرة الشعوب مرتديًا حلة داكنة غالبًا ورابطة عنق حريرية فاتحة اللون وممسكًا ملف أوراق القضايا في يد، وفي الأخرى الاثنين أو الأشياء الثلاثة الهزيلة واللافتة التي عثر عليها حيث كان يلفّهم في البداية بجريدة ثم زاد العدد. كان يرى نفسه أنه سيصير جزءًا أو عضوًا في مجموعة على الساحة العالمية كما لم يحدث من قبل في عشرات السنين السابقة.. أحد الفاعلين الذين يجسد كل واحد منهم دورًا مختلفًا تمامًا، لكنهم جميعًا ينتمون للعبة كبيرة في تباينهم.. تلك اللعبة التي يزداد انتشارها.

كان هناك أطفال مدارس جالسين في دائرة أو يلهون أنهوا يومهم في الغابة. كان هناك مجموعة من الجوالة وبعض الشباب وسط عدد كبير من كبار السن، يقفون عند تقاطع الطريق متحدثين بصوت عالٍ ومن الواضح أنهم كانوا غير متفقين إلى أين يواصلون المسير. هناك ثمة شخص يقف ومعه قضبان عند جهاز التدريب منتظرًا خلفه شخصًا آخر خلف الجهاز. هناك فارسان سقطا من الخبب إلى العدو في الوقت نفسه. هناك أيضًا بعض العدائين الصامتين المنفردين تدوي الغابة بأصواتهم أثناء

فترة راحة الظهيرة. هناك امرأة شابة استعدت لمواصلة التجوال طوال اليوم. لم تعد الغابة لها أكثر من مضمار للمشي. هناك أسرة آسيوية كانت تبحث عن ثمار الكستناء الحلو.. عشيرة مكونة من أكبر جدة لأحفاد أحفادها. ألا تذكره تلك الأسرة بالعشيرة الأخرى في السابق؟ ثمة دورية شرطة في المكان. وهناك حيث صار الطريق أكثر اتساعًا كان يوجد مجموعة من المتقاعدين يلعبون البولينج.

كان يتوازن معهم جميعًا، هذا الباحث عن الكنز وفي الوقت نفسه إنسان عادي، زميل، ومثل هذا الاتزان كان في الحقيقة ثمينًا للغاية مع كل رحلة بحث عن الكنز. لطالما تلاعب به كوكب الأرض طوال نصف حياته، وها هو الآن صار هو من يلعب معه، وهل فعل؟ شارك في اللعبة في هذا المجتمع. مجتمع المختلفين، المختلفين بشدة. علاوة على ذلك أنه في كل مرة يذهب فيها للعمل ويخادع يصاحبه شعور، وفي الوقت نفسه يقين بأنه يصنع بعمله خيرًا لمن يثق به، أي ذويه ومعهم متهموه.

وماذا عنه هو وهو يمسك بالفطر في يده؟ لفترة شعر بأنه شخص غير منتمٍ لشيء على النقيض من المشهد. لم يتمكن أمثاله، أي من همٍ على شاكلته، الذين لا يمضون في طريقهم أو يتخذون طرقًا مختصرة، بل يعبرون سيرًا بين الأشجار والشجيرات وفي الدائرة خطوة خطوة وببطء ملحوظ، أو يكتفون

بالوقوف أو الجلوس، يختفي نصفهم من جذوع الأشجار وأوراقها ويبدون فجأة من وسط الأدغال ثم يعاودون للاختفاء من جديد بداخلها -من أن يكونوا جزءًا من اللعبة- أقل ما يقال بل يضاف إلى ذلك لا يلعبون مع أشياء غير معروفة وغريبة الذين يحملونها أو يكدسونها في جيوبهم في ريبة. كانوا في أفضل حالة أو نقول أقلها ضررًا.. شخصيات هامشية مثله ليس لهم أي علاقة باللعبة. صحيح أنهم يؤدون إلى اضطرابها عندما يخطئون في تنفيذ الخطة.

ثم جاءت اللحظة، لحظة المتأرجح المتقلب في إيقاع متناقض لكل الفاعلين، المتحرك خلال الطبيعة منفردًا وزاد عدد العدائين، ولكن كان هناك فرد يبدو أنه أكثر من الغالبية ويرى نفسه مشاركًا في الفعل. دخل اللعبة. أكملها وخالطها. دون عرقلة أو اشتباك أو تحديد الممارسات، ربما يغيب بعض الشيء عن الساحة العالمية وهو يتعثر خارج الصورة ليلعب دور جامع الفطر في فصلي الصيف والخريف على الأقل. شخص مثله في الخطة يهتم باتجاه آخر. وبدا له في هذا الاتجاه كل شخص آخر في مكانه وله طريقته وهو أيضًا مثلهم. قدّم هذا الأمر صورة غير مسبوقة للمجتمع الإنساني المثالي.

بهذا الوعي خرج من الغابة وواصل طريقه خلال شوارع المدينة

الكبيرة المأهولة وعاد له اضطرابه وعصبيته، الذي كان بالغًا في السابق، وشعر بالذل الناجم عن أصله القروي كسابق عهده. هل أنا كشخصية ثانوية غير شرعي؟ انظروا! قصد بذلك ما يحمله على عاتقه، لم يشارك عدد قليل معه في اللعبة، أنصتوا له وبقوا وحكوا كما فعلوا في السابق... هناك من حيث يعود أصلهم... عما كان في ذاكرتهم أكثر بهاءً... وأخيرًا في نهاية اليوم عودة جامع الفطر، عودة مختلفة تمامًا عن عودة الصيادين.

في تلك الفترة السعيدة التي عاشها كمجال، كمرحلة كروية لم يقابل صديقي -عاشق الفطر- أي منافس. كانت المقابلات مع باحثين آخرين نادرة وإذا حدثت فكان لديهم أماكنهم الخاصة الأخرى التي يبحثون فيها، وكانوا يبحثون في أوقات مختلفة عنه. بدا أنه قابل شخصًا ما برأس منخفض مثله يجوب الغابات ببطء وكان يتوقف ويتأنى بطريقة غير مسبوقة في حركاته الحلزونية البطيئة. لكنهما لم يتجنبا بعضهما بعضًا خلاف ما كان يحدث لاحقًا، بل كانا يعرضان كنوزهما أو كنزهما لبعضهما حين تحين الفرصة. كانا يتبادلان مشاعر الغبطة وهو أمر مباح طبقًا لأديان الشرق الأوسط، لأن الغبطة تجعلك تتمنى لنفسك الشيء نفسه أو أي شيء مشابه دون تمني زوال النعمة من الآخر وهو الحسد غير المباح. وظل لفترة طويلة يلوم نفسه على ما قالته له جامعة الفطر بالنظر إلى اسكشافاتهما المتماثلة في العدد والحجم والجمال وما كان جليًا: «هذا كافٍ بالنسبة لنا نحن الاثنين. أليس

كذلك؟». «نعم، هو ذاك، مرحا!». لم تعد الغبطة المباحة من الرب أو الأرباب مناسبة. فالباحثة كانت امرأة عجوزًا مرتدية قبعة بائع الصحف وكانت توخز في الأوراق بعصا سميكة أثناء سقوط الأمطار. كان الفطر الوحيد الموجود في سلتها والذي يختلف عن فطره هو الذي أطلق عليه أنه تأثر بكارثة المفاعل النووي -تعرفون الحادثة- وصار أكثر الاشياء تأثرًا بالإشعاع وظل الأمر على هذه الشاكلة على مر مئات السنين وعندما اعتقد أنه يجب عليه أن يلفت انتباهها لذلك الأمر أجابته أنها تعرف، لكن مع اقترابها من سن التسعين لم تعد تقلق من هذا.

زاده شغفه من عمق معرفته من موسم لآخر ويوم بعد يوم، وبدا له أنه يمكنه نقل جزء غير قليل منها من مجاله المحدود لمجالات أخرى. شعر بقدر كبير من إثارة المكتشف حتى في التفاصيل الصغيرة وفكر في تأليف كتاب عن الفطر في فترة الإجازة القضائية.. كتاب ليس له مثيل من قبل. فربما لا يصير مجرد مكتشف بل رائدًا، ويضاف إلى ذلك أو إلى ما سبق، تصور صديقي أن مثل هذا الكتاب الناجم من حماسه ومن عمله القضائي سيكون مقسمًا على العام، بهدف قراءته بتشوق وبشكل شامل. توقع لنفسه نجاح عمره. كان ميسور الحال كما قلنا. لكن مع كتابه عن الفطر الخاص والشامل أيضًا، صار ثريًّا وتعرفون بماذا كان يحلم؟ شراء غابة.. غابة كبيرة.

3

لم يُسطر كتاب الفطر أبدًا، لكنه حكى لي مع مرور الوقت بعض الأشياء التي كان يجب أن تُذكر فيه. سأحاول أن أعيد سردها هنا، ليس بقدر من الانفعال و«لا دون انفعال» على الإطلاق من ناحية أخرى، ولكن من منطلق ثناء معاصر غريب لشخص يروي ما كان ينوي أن يفعله عندما داهمته رغبة السرد، وشعر أنه قد استحوذ عليه. سأروي الحكاية دون تقسيم لأنني لم أصبح رجل قانون ممتازًا عكس صديق قريتي وطفولتي على الرغم من أننا درسنا المجال نفسه.

سأحكي حكيًا غير متسلسل عن كتابه عن الفطريات الذي لم يكتبه. استمد صديقي موهبته أو ملكته لاكتشاف فطريات لم يرها أحد غيره من تلك الخصوصية المذكورة التي سبق وأن عانى منها بدرجة حادة ألا وهي الشغف الذي كان أكثر الأمور المعرقلة لحياته. وقصد بذلك انشغاله الدائم وكل يوم بهذا الشيء، لا بالشكل الذي يظهر له في مجال رؤيته من آلاف، بل وآلاف الآلاف من الأشكال.. الشيء الذي يقفز إلى عينيه حرفيًّا يومًا بعد يوم

وساعة وراء أخرى كأنه شيء وحيد. شيء وحيد مختلف تمامًا. وقاده مثل هذا الحس والإدراك للشيء المختلف كليةً -الذي يتخذ شكلًا مناقضًا لكل الأشكال الأخرى- قاده إلى طبيعته الأصلية، الأمر الذي أصابه بألم ومعاناة، فمثل هذا الانجراف تجاه الشكل الغريب أدى به إلى التعثر وعدم القدرة على مواصلة المعرفة، بل والعجز سواء في العمل أو في الحياة كما قيل سابقًا. ففي حالة «في لمح البصر» داهمه الجمود سواء بسبب آثار حشرة مدهوسة أو بقعة قهوة أو دهون صغيرة للغاية أو من شعرة رفيعة للغاية على جانب كود القانون الجنائي الدولي أو بسبب عظمة الترقوة المتورمة للغاية والتي لا تبدو سوى ندبة دائرية، أو بقعة بلون الحليب في عين زوجته التي صار متوحدًا معها أو كان قد أوشك على ذلك. وما صادفه في حياته وعمله أحيانًا كسلسلة من الأحداث المشؤومة، أي انحراف عن إرداة كلية للانجراف بعيدًا (أقرب إلى شكل عشوائي عن شكل منتظم) أصابه في النهاية بجمود الوعي الناجم عن العجز والذنب الدائم وابتعاد عن المسار وكأن لا سبيل للعودة، الأمر الذي أوقعه كما قال في حالة وعي وإدراك واكتشاف وعثور على الفطريات، حتى الأنواع المتوارية منها بين الأشجار وفروعها أو تلك التي تظلها أوراق الأشجار. ولحسن الحظ وبشغف متزايد حاولت أن تفصح عن نفسها من أجله هو، هو فقط كي تشفيه مما فيه. على الأقل لم يبعده ظهور أو بزوغ الشكل اللافت بين العدد الهائل من الأشكال غير اللافتة (كي ننوع

في الأسلوب ونحدده) على أرض الغابات المليئة بالأوراق، كما لم يصِبه الشكل بحالة من الجمود بل جعله منتشيًا، أي حمَّسه بدلًا من أن يلهيه. لا، في حالة عالم الفطر -كما هو موضوع الخطبة- الذي يمثل أساس كتاب الفطر الخاص بصديقي، الذي اختفى فيما بعد والذي أستشعر قربه الجسدي بل وأشمه منذ بضعة أيام هنا، سيتم وضع الطبيعة الأصلية الحقيقية للنظرة في موضعها حسب قوله. كانت النظرة هي الشرط الأول للبحث والعثور وهذا الأمر لم يكن مقصورًا على الفطريات، بل البحث والعثور بوجه عام فمن دون هذه الطبيعة الأصلية لا وجود لعين المكتشف التي فيها وبها ومن خلالها يصير اللاشكل شكلًا والشكل كنزًا.

بالمناسبة أراد صديقي أن يدرج بكتابه الشكل المميز لكل منها، والذي يوحي بشيء أسفل الأشكال الأخرى الصامتة للأوراق المتداخلة على الأرض وأوراق السرخس مروحية الشكل والعدد الهائل من الإبر العشبية ومغازل الطحالب التي ربما أصلحت إداركه للألوان غير المتطور بأن كل شكل «يضيء» له وإن كان شكلًا فرديًّا صغيرًا كما في القصيدة القديمة عن الزهرة، حيث يبدو له بلون أحمر قانٍ اليوم، وغدًا بلون زرقة حجر الجمشت وبعد غد بلون رمادي داكن أو فاتح وهكذا دواليك.

لم يكن كتابه عن الفطر دليلًا إرشاديًّا أو إذا كان فسيصير دليلًا لنفسه في المقام الأول، لكنه كان أقرب لأن يصير دفتر

ملاحظات أتاحها لي سرًّا في البداية ثم بشكل علني ولآخرين في الوقت نفسه. في البداية كان مجرد سرد، مثلما تروي شيئًا أحيانًا وتوضحه ثم يضيع في التنظير والإثارة لبعض اللحظات.

حكى على وجه الخصوص كيف اعتاد مع الوقت -قبل بدايته الجادة في البحث عن الفطريات حتى في الغابات الهشة غير الكثيفة- على السير لمسافة معتبرة خلال الأماكن التي استطاع أن يكون واثقًا أنه لا ينمو بها الشيء الذي كان يغض الطرف عنه، أو أنه لا يوجد سوى الأشجار والشجيرات. سار هناك وهو ينظر دومًا إلى الأرض، حيث عرف أنه لا يوجد سوى الرمل والطين وسط الأوراق. زادت حده بصره للظواهر المتوقعة دون أن يفعل السائر أي شيء من جانبه. فإذا به يرى ما لم يكن يُرى على وجه الخصوص. عندما وصل لأماكن تعد بالعثور على شيء اتسعت عيناه.

وساعده في ذلك؛ أن صديقي عاشق الفطر كان يغير من نوع حركته في المكان والتي أطلق عليها اسم «خطوة الباحث»، وبنظرة جانبية مثل نظرته إليَّ، أطلق عليها أيضًا «خطوة ملحمية»، حركة تقترب من الوقوف، ولكنه لم يتعثر أبدًا وهو يمر بين الأشجار والشجيرات، بل كانت خطواته مترابطة متساوية. أخيرًا توقف ثم سيطرت خطوة البحث على الإدراك، وبدلًا من الوقوف ساكنًا

تحرك بطريقته أثناء البحث الذي أثمر عن شيء غير مسبوق.

تحدث أيضًا عن تنويع خطوة البحث، حيث كان يمشي للخلف واضعًا قدمًا خلف الأخرى بحرص. (ألم يكن هذا نوعًا من التقدم.. من المشي إلى الخلف إلى الحيرة ثم للمشي إلى الخلف من منطلق التسلية، للمشي إلى الخلف كباحث عن الكنز؟) أم هل كان ينصح نفسه غالبًا عندما كان يمشي برأس منخفض عبر الغابة، ويتوقف من وقت لآخر وينظر من الأرض بلا قصد صوب قمم الأشجار والسماء، مائلًا برأسه للخلف وهذا على الأقل لمدة دقيقة. ومثلما وصف التفاصيل وأكثر الأشكال غير اللافتة، يخفض عينيه لأسفل فتستطع له الأرض وملامح الأشياء التي كانت متماهية في السابق بفضل نور السماء وكأن أصابتها شحنة كهربائية من النور. ليست هي المرة الأولى التي يدرك فيها -بعد النظر الملح لأعلى تجاه قدميه- لما كان منذ ساعات وربما أيام وأسابيع يبحث عنه، أو اكتشف شيئًا مختلفًا تمامًا.. شيئًا لم يبحث عنه على الإطلاق.. شيئًا لم يتصور أن يراه في الطبيعة من قبل.. شيئًا جديدًا بالنسبة له، أو عندما ألقى بصره لأرض الغابة لم يكتشف الفطر الذي كان يبحث عنه أو أي نوع من شيء ثالث غير معروف، لم يكتشف شيئًا جديدًا بوجه عام، بل عرف شيئًا واحدًا بعد كل هذا البحث ألا وهو مجال قمة حذائه وبوته. نعم، كان يطلق على ذلك أيضًا اسم مجال.

انتقل صديقي من هذه النصائح الذاتية إلى ملاحظاته المناسبة للكتاب المخطط له عن الفطريات، لأوامر وجهها لنفسه. فمثلًا أمر نفسه لفترة من الوقت أن يخطو خطوة البحث هنا وهناك، وينظر للسماء هنا وهناك، ولم يرَ ما يطمح له، بل وصف في أحد المواضع المأمول بدلًا من شيء آخر، وليس فقط الآخر بل فطريات ليست ذات قيمة بالنسبة له، بل توت حتى ولو كان جافًّا أو ثمرة كستناء عطبة أو فاسدة ومتفحمة: «اجمع، توجه للجوانب، انحنِ، ابحث، توجه، نقّب». مثل هذه النصائح كان يقصد أن يسترشد بها قراء المستقبل لكتابه عن الفطر، بالنظر أيضًا لجمع أشياء ليست ذات قيمة حيث يقترب من الأرض أكثر ويشرع في البحث.

حولها إلى توصيات حذرة لفترة من الزمن. فمثلًا أوصى -بعبارة «من منطلق الخبرة لسنوات طوال» (على الرغم من عدم مرور فترة طويلة)- إما البحث بالقرب من الطرق والدروب أو الابتعاد عنها تمامًا: كانت الأماكن البينية الكبيرة بين حافة الطريق وداخل الغابة الصعب الدخول إليها أرضًا غير خصبة بالنسبة «لكائناتنا»، وقصد بذلك الفطريات الثمينة التي سبق وأن أطلق عليها في البداية اسم «كائناتي». فقد عثر على غالبية، بل كل «كنوزه» تقريبًا بالقرب من جوانب الطريق كما قال، ولم

يجد شيئًا بعيدًا عن هذه الحواف، ولكنه وجدها في أكثر أماكن الغابة عمقًا، وهو الأمر الذي اكتشفه بنفسه وسط تشابكات الأشجار والقاذورات وفي الرماد أسفل فتات شجرة نصف ميتة حيث تمتلئ الأرض برصاص البنادق وهو أمر معتاد. وجد الكنز الوحيد المتميز وحياه قائلًا: «مرحبًا، أيها الملك». وذات مرة حياه بقوله: «المجد للإمبراطور!» (Ave, Caesar!).

بقصد مماثل روى كيف عوّد نفسه على البحث في الأماكن التي سبق للآخرين البحث فيها، حتى لو أن هؤلاء قد تركوا المكان والخطة على الفور بعد أداء عمل كبير وتحريك الأشياء السفلية لأعلى. في كل مرة كان يجد نفسه أمام شيء «حقيقي» لم يرَه من سبقوه وهذا الأمر كان «يستحق كل الاحترام والتقدير».

نصح أيضًا بعدم البحث عن شيء كان مصدرًا غنيًّا للغاية في العام السابق وهذا الأمر يتعلق بأنواع معينة. صار معتادًا مرة أخرى أن مثل هذه الشعوب تستمر في المسير تحت الأرض طوال العام عبر الشتاء والربيع بحثًا عن الماء وتجنبًا للرياح، ثم تدهشنا وهي تنتشر بعيدًا وتخرج من الأرض إلى النور والهواء، صحيح أنها تمتد بعيدًا لكن ليس بمدى بعيد عن مكانها الأصلي. حيث يستقبل الباحث الرائحة، كما كان يحدث له كل عام، لكنه حذَّر أيضًا من البحث عن طريق آثار الكلاب في الغابات ونصح بالخيول

بواسطة روثها. ونصح عاشق الفطر بشكل أكثر إلحاحًا بالبحث في الأماكن في الغابة التي سبق وأن لعب بها أطفال وصرخوا عاليًا وجابوها وجروا بها أو كانوا يلعبون فيها أمام أعين الباحث. وطبقًا لملاحظاته فإن الأماكن الواعدة بالحظ والموثوق بها هي الأماكن الواقعة بالقرب من أرجوحة الأطفال وخارج الغابات في المتنزهات والمروج والحدائق. «شيء لا يصدق لكنه حقيقي».

كان من المفترض أن يخصص فصلًا كاملًا في كتابه عن الفطريات للغابات التي بها أماكن لحفر القنابل. حيث تكثر هذه الغابات في محيط مسكنه بالقرب من المحكمة الدولية. ترجع الحفر التي أحدثتها القنابل إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وكانت قنابل أمريكية ساهمت في طرد المستعمرين الألمان من البلاد. كانت أشكال الحفر فارغة ولا أثر للقنابل المتفجرة، كما تنسجم الغابات المجاورة لمطار عسكري -سبق وأن استخدمه الغزاة- مع الحفر حيث تتكاثف لدرجة أن عددًا ليس بالقليل منها يتداخل سويًا. اختلفت أحجام هذه الحرف، فلم تكن دائرية دومًا وبعضها كان مثل فوهة وأعماقها متباينة وتختلف حسب الانحدار والسقوط المسطح للقنابل وجوانب الحفرة داخل كل منها. صادف أكثر مصادر الفطر ثراءً في الأسفل، في قاع الحفرة أسفل طبقات الأوراق التي تعود لعشرات السنين. وبدا أنه لم يكن في حاجة إلى البحث خلال الطبقات أو تقليبها. حيث بزغ الفطر

أو الفطريات من تلقاء نفسها على الأقل بمظلاتها التي نمت من الحفر وأكبر من أي مظلات أخرى، فهي تشبه شكل الحفرة ولكنها كانت بلا لون تقريبًا بدلًا من اللون الأصفر الضارب إلى الأحمر الداكن مثل الألوان المعتادة، حيث كانت تميل إلى اللون الأبيض أو ناصعة البياض وكانت أكثر أنواع الفطر السامة فتكًا «أو لا، لم تكن بيضاء بل كانت باهتة». وأسفل المظلات كانت سيقان الفطر باهتة أيضًا. بعد أن نقب عنها من تحت الأرض بدت طويلة بل وأكثر طولًا بمقدار الضعف من مثيلاتها التي تنمو خارج الحفر (لكن بالنسبة للرائحة والمذاق فكانت شهية للغاية).

لكن ليس لهذا السبب فحسب أراد عاشق الفطر أن يروي فصلًا كاملًا عن الغابات المليئة بحفر القنابل، بل كان يفكر في نصيحة قراء المستقبل لكتابه ببساطة ويسر بالسير في مثل هذه الغابات وأن ينقل لهم عدوى مزاجه في التحرك والسير هناك لأعلى وأسفل وسط الطبيعة المليئة بأشكال حفر القنابل المبطنة بالأوراق الطرية الناعمة. عندما كان يجوبها لساعات طوال كان يشعر -حتى ولو لم يعثر على شيء خاص- وكأنه حصل على هدية من الغابة حتى لو اقتصر ذلك على إمكانية التنفس بحرية أكبر، واستيقاظ حواسه لآفاق واسعة. «هل من خلال المسير أعلى وأسفل داخل حفر القنابل؟» نعم هذا بالضبط».

كان كتابه عن الفطريات «الذي كان يجب أن يحظى بمزيد من الأهمية قرابة النهاية، يتناول البحث عن الفطريات والتنزه في الغابات. صحيح أنه أراد مواصلة الحكي عن تحوله بحثًا عن الفطر كخاتمة لكنه أراد أن يروي أيضًا عما آل إليه شغفه على مر السنين. لا، لم يضعف بل صار «ذا اتجاهين». لأنه في الأغلب كان يقرر اختيار الطريق الذي كان يبدو أجمل ومثيرًا عندما كان يختار بين مسارات متعددة للبحث عن الفطريات، حتى لو كان هذا الطريق لا يعد سوى باكتشافات أقل. حظي الطريق والسير بكثير من الأهمية على الأقل مع مرور الوقت مثل البحث والعثور. في منطقة طفولتنا نحن الاثنين كان سكان القرى الأكثر ارتفاعًا في منطقة سلاسل الجبال لا يبحثون عن «الفطر» ناهيك عن القيام بجولة لتفقد أماكنها. فقد سكنوا بالقرب من الغابات حيث كانت مزدانة باللون الأصفر لون فطر القديس يوحنا طوال الصيف على الأقل. وسرعان ما كانت تمتلئ سلالهم وأوعيتهم بمجرد أن يخرجوا من أبواب منازلهم. كان يستخدم هؤلاء الناس كلمة «جمع» بدلًا من «بحث»، قائلين: «نحن لا نبحث بل نجمع».

لكن كان هذا الشيء بالنسبة لعاشق الفطر غير مناسب. فكان يرى أنه يجب البحث عنها. والتجول بحثًا عنها. يُضاف إلى ذلك عنصر ثالث هو اختيار طريق جميل بل أجمل بل الأكثر جمالًا بحثًا عنها. ولا يناسبه التجول مع أشخاص عدة -أي التجول في

مجموعة- بحثًا عنها. فقط التجول منفردًا هو المناسب له، حتى التجول فردين سويًّا كان غير مناسب بالنسبة له. الاستثناء الوحيد كان في صحبة طفل. من الأمور المبهرة في دليله الإرشادي عن الفطريات المزمع تأليفه هو البحث بمساعدة كلب (كان يقبل الخنازير فقط). كيف عثر على أكثر أنواع الفطر المطلوبة وهي فطر الترافل[15] في أعماق الأرض؟ كيف نقب عنها؟ ثم روى حكاية كيف وقف بنفسه منفردًا في أحد فصول الصيف عند قاعدة أرجوحة أطفال أمام فطر ترافل حيوي، كان عبارة عن كتلة سوداء فوق سطح الأرض في شمس الظهيرة العمودية. من الغريب العثور على مثل هذا الفطر الذي يشبه فضلات كلب. لكن رائحته تنبعث من أسفل من على مسافة مترين تقريبًا. نعم، إنه هو! نقب عن الكتلة بيدين مجردتين، ثم ها هو الشكل المستدير يخرج للنور. نعم، فهمت، بزغ الترافل من الأرض بسبب أمطار الليلة الماضية دون مساعدة كلب أو خنزير. كم كانت ثقيلة في يده واستمرت رائحة الكرة السوداء تفوح حتى ليلة الحب التالية بل وبعدها، لكن لم يخرج فطر الترافل من كتلة جذور شجرة سنديان كما لم يخرج من شجرة معتاد ذكرها في كتب الفطريات. لم تكن سوى شجيرة زهرة عنقود هزيلة. لم تكن أكبر

15- فطر الكمأ. ويعرف أيضًا بالترفاس. ويعد من أغلى أنواع الفطر في العالم. هو فطر بري موسمي ينمو في الصحراء بعد موسم الأمطار الرعدية بشهرين. ويكون نموه تحت الأرض بعمق بين 5 : 155 سم. ولا يظهر له أي أجزاء فوق سطح الأرض. (الناشر)

من شجيرة مثل إحدى الشجيرات التي تنمو على حواف قضبان السكك الحديدية ولا يوجد لها أي أثر في الغابات. بدا فطر الترافل بين ضاحيتين قاحلتين، على الطرف، وسط ساحة للعب الأطفال.

صحيح أن صديقي كان يتوجه كل صيف لشجيرة زهرة العنقود، الواقعة في ساحة لعب الأطفال بعد كل ليلة تهطل فيها الأمطار لكنه لم يعثر على فطر ترافل آخر على الإطلاق. (ولم يكن لديه سوى ليله الحب تلك التي كان على كتاب الفطر أن يسكت عنها) على الجانب الآخر كان البحث عن الترافل في عينيه بمثابة شيء لا يناسب التجول بحثًا عن الفطريات. بصفة عامة كانت ملاحظاته الأخيرة عن نيته أقل تأثرًا بالسرد عن وضع القواعد الصارمة لدرجة أنها بدت بمثابة قواعد لعبة فحسب، وربما ما جال بمخيلته أوقعه في فهرس من القوانين والقواعد والمطالبات والأفكار.

ذات يوم شاهد مجموعة من الأطفال وهو موجود في غابة، حيث لم يسبق له وأن رأى أطفالًا يلعبون لعبة خريطة الكنز بهذا القدر من الحماس بين الأشجار ويجوبونها أعلى وأسفل. عندئذ جال بخاطرة فكرة أنه يجب على معلمي هؤلاء الأطفال ومربيهم أن يرشدوهم للبحث عن عالم الفطريات. كان يبحث هؤلاء الأطفال بحماس بالغ عن قطعة ورق وضعها الكبار في

جذع شجرة أو شجيرة أو في مدخل بيت ثعلب مهجور ولا يرون أي شيء آخر، ليس فقط الفطريات. دون قصد قطعوا الفطريات ودهسوها وعصروها برؤوس حمراء -لم تعد رؤوس أطفال- وألسنة متدلية ويصرخون بعضهم لبعض ومع بعضهم بأصوات لم تعد لأطفال.. يزمجرون بأنفاس متقطعة وبأعين جاحظة. من الأفضل أن يتعلموا البحث عن الفطريات تدريجيًّا بحرص، وليس فقط عما يبحثون عنه بأنفاس لاهثة بل عن شيء آخر مختلف. بل الأفضل أن يفتحوا أعينهم بدلًا من جحوظها وسيصير صراخهم الحالي هنا وهناك صراخ أطفال مثل صراخ من هم في مرحلة البلوغ وتغيير الصوت.

عرف عاشق الفطر في طفله الذي كان يصحبه معه من البداية في رحلاته الاستكشافية كيف أن لهذا التجول تأثيرًا تربويًّا، دون ضرورة وجود مُربٍّ في الخلفية. يناسب الطفل -«ليس بالنسبة لطفلي فقط»- التجول على وجه الخصوص أكثر من أي شيء آخر، كي يكون «لنسلي» نظرة أفضل للأشياء عند قدميه وليس فقط لأنها أقرب له. «نعم هذه فكرته السارية والتي ستظل». طبقًا للملاحظات الخاصة بكتابه عن الفطر ربما نستطيع أن نتخيل في النهاية -أو مجرد حدس من وجهة نظري- لماذا لا يكون «سوى» لمجتمع معين مستقبلًا. «سيكون ذات يوم. سيكون مرة أخرى». وذلك بعد إفلاس الأفكار المجتمعية الأخيرة في قرننا الحبيب.

طبقًا لملاحظاته الأخيرة يبدو كأن كتاب صديقي عن الفطر يرشد الباحثين عن الفطر للتعاون في رؤية نموذج لمجتمع ممكن جديد، بل تخيل كل تناقض أو لا، منفردًا كمغامرات أخيرة للبشرية إن لم تكن لآخر بشر. الباحث المنفرد عن الفطريات كمغامر وفي الوقت نفسه آخر وأول إنسان على حد سواء.

هل الفطريات هي «آخر مغامرة؟». بالنسبة لعاشق الفطر فالأمر واضح، لأنه استخدم كلمة «الحد الأخير» تعبيرًا عن البَرية.. الحد الذي يمكن أن نكتشف خلفه قمة البرية على الأقل. لم يعد لهذا الحد وجود منذ وقت طويل سواء في ألاسكا أو في أي مكان آخر ولا حتى في الهيمالايا. لكن المغامرة الأخيرة كانت موجودة ولكن لا يعلم أحد كم استغرقت حتى وإن لم ندرك سوى جزء صغير منها فقط.

هل الفطريات هي «البَرية الأخيرة»؟ (Last wilderness) بالنسبة لصديقي عاشق الفطر، الأمر «واضح وضوح الشمس». لأنها كانت النباتات الوحيدة على الأرض التي لم تستزرع ولم تتمدين ناهيك عن إمكانية زراعتها في المنزل. تنمو طبيعيًّا

دون تأثر من أي تدخل بشري. وفطريات محارية[16] وفطريات الحلويات الكاذبة[17] وكل الفطريات اليابانية[18] وخلافه هل من الممكن تربيتها أو زراعتها؟ هل يسري هذا أيضًا على فطريات الترافل ولو بطرق غير مباشرة من خلال نباتات أشجار معينة؟ أليست فطريات؟ «واضح لثالث مرة» القدرة على استزراعها. ليست الأنواع البرية منها هي المغامرة كما كان يعتقد. أما الأنواع المستزرعة مثل فطريات الشمبيون وفطريات محارية وفطريات الحلويات الكاذبة وفطريات الإينوكي[19] وفطريات الغوشنة الصينية[20] والفطريات العسلية[21]، فليس سوى خداع بصري فقد كانت مستنسخة ويتم تداولها في الأسواق بأسماء زائفة، لا تختلف في الأساس في الألوان والروائح فحسب بل خيالية من الألف إلى الياء وبلا جوهر ودون قيمة في اليد أو في الفم على عكس من أعطوها أسماءها. وعلاوة على ذلك الشعب

16- هو جنس من الفطريات ذات الخياشيم ويتبع فصيلة المحارية من رتبة الغاريقونيات. وتعتبر من أكثر الفطريات الصالحة للأكل التي تزرع عادة في العالم. (الناشر)

17- هي فصيلة فطر من رتبة الغاريقونيات، تضم 18 جنسًا، و1316 نوعًا. (الناشر)

18- نوع من الفطريات يتبع جنس الصاقورية، من الفصيلة الغاريقونية. (الناشر)

19- فطر الإينوكي، إينوكيتاكي، أو فطر الإبرة الذهبية: هو فطر طويل، عودي الشكل أبيض اللون. ويستخدم بكثرة في الأطباق الآسيوية، وبشكل خاص في الأطباق الصينية والكورية والفيتنامية. (الناشر)

20- هي جنس من الفطريات، يتبع الفصيلة الغوشنية من رتبة الفنجانيات. ويعتبر من أطيب وأشهى أنواع الفطر المأكول. ينمو في جميع بلدان نصف الكرة الشمالي التي لديها مناخ معتدل. ويظهر في فصل الربيع. (الناشر)

21- الفطر العسلي، أو أرميلاريا. هو جنس من الفطر الطفيلي الذي يحيا على الأشجار والشجيرات، ويضم نحو 10 فصائل، ويعمر طويلًا. (الناشر)

الأساسي للفطريات وليس فقط فطريات هونجوس[22] بل أيضًا ظلت فطريات الروسولا[23] وفطريات المظلات[24] والمراسمية وفطريات الهدبان[25] والقيصريات وفطريات الغوشنة وفرسان القديس جورج وفطريات القديس جون وفطريات رؤوس الرهبان والفطريات الكويزية وفطريات يهوذا[26] وفطريات الكبريت الرمادية والجذريات الفطرية[27] والفطريات ذات الأشكال الإسفنجية والفطريات المسامية[28] برِّية وغير قابلة للاستزراع، وطالما أنها النباتات الوحيدة في العالم التي أبت الاستزراع سيظل تجوالي بحثًا عن الفطريات جزءًا من هذه المقاومة ومغامرتها.

زمن الانطلاق والبحث والعثور ومواصلة البحث: «طريقة للخلود» وأشار لنفسه حيث لم ير في كتاب الحياة شيئًا مسجلًا عن نجاحاته في أحكام البراءة. لم يرَ سوى رحلاته الاستكشافية

22- هو فطر يستخدم لعلاج فقدان الذاكرة، والقلق، والأرق، والتوتر، ومشاكل المعدة. (الناشر)

23- جنس من الفطريات يتبع الفصيلة الروسولية. وتعتبر هي الفطريات الأكثر شيوعًا في الغابات؛ فهي تشكل 30 : 40% من كتلة جميع أنواع الفطر. وبعض أصنافها يمكن أن يؤكل نيئًا، والبعض الآخر غير صالح للأكل. (الناشر)

24- يتميز بقبعة كبيرة وعريضة على ساق طويلة ورفيعة نسبيًّا. وهو فطر صالح للأكل وذو مذاق ممتاز، ينمو في الغابات في فصل الصيف. (الناشر)

25- هو جنس من الفطريات يتبع الفصيلة الهدبانية، من رتبة الغريقونيات. (الناشر)

26- ويسمى أذن يهوذا، وهو فطر من رتبة الدعاميات وفصيلة الأذينية، قمعية الشكل، ويطلق عليه الصينيون «لحم دون عظام» ويستخدمونه كعلاج طبي. (الناشر)

27- الجذريات الفطرية أو الفطريات الجذرية؛ هي فطريات تكافلية، اتحاد تكافلي بين فطر ونبات، ويحدث بين جذور النباتات. (الناشر)

28- الاسم العلمي غانوديرما، وهي جنس من الفطريات المسامية، وتوجد في المناطق الاستوائية، ويتم استخدامها في الأدوية الآسيوية التقليدية. (الناشر)

خلال الغابات.

يجب أن تبقى طرق التحضير بعيدة عن كتاب عاشق الفطر. لأنها ليس مقصده علاوة على أنه كان يعتمد سرًّا على أن يفاجئه قراؤه بأفكار وحكايات من المطابخ وبعيدًا عنها مثلما فاجأهم هو.

وجدت إشارات صغيرة في مسودة كتابه عن حاسة التذوق، التي اكتسبها أكثر فأكثر على مر السنين والعقود على خلاف الأنواع الكثيرة المستساغة الأخرى التي لم يشعر بمذاقها. وانطلاقًا من كلمة «مفاجأة» فكل نوع من آلاف الأنواع المستساغة من الفطريات مناسبة لأن تكون مفاجأة، حتى تلك الواردة في كتب أخرى عن الفطريات بوصفها «متوسطة» الطعم و«بلا قيمة». لم يعد أي منها يوصف بكلمة «برَّية»، فحتى التي تنمو منها بشكل طبيعي في الغابات من حيث الشكل واللون والرائحة تتحول في الفم إلى شيء طري وناعم. وكلما كان مظهرها الخارجي بريًّا كانت أكثر نعومة من الداخل وهي داخل تجويف الفم. تلك هي القاعدة. وأي شيء آخر فهو مخالف حتى ما يطلق عليه اللحم الأكثر ليونة وأكثر أنواع الأسماك الطازجة حتى الكافيار الذي أجد طعمه مبتذلاً مقارنة بمثل هذا النبات البري. ثمة نباتات برية نادرة قد تقترب من هذا الطعم حيث فيها طعم إضافي يفوق كل النباتات الأخرى ومن الممكن البدء به (لكن لا يجوز ولا يجب إفساد المضغ بشيء آخر قبله)

«البدء به. يبطئ تلذذ الطعام عملية الأكل ليصير استطعامًا، ويصير الاستطعام تذوقًا طيبًا. والتلذذ والاستطعام والتذوق يتحولون إلى شوق وبعث حياة مثل الطعام وتناول الأكل وبفضل كل ذلك يصير غرقًا وانغماسًا في النهاية، وفي الوقت نفسه يصبح -بشكل أغرب من الغرابة- نبض الهدوء -يا إلهي- ممزوجًا بظهور حب الناس بداخلك وداخلي في الأوقات المقدسة، عزيزي القارئ.. إنه شعور الصعود لسماء الخيال المتلألئة بالنجوم. اصدقني القول في أي مطعم بنجمة أو اثنتين أو ثلاث نجوم صادفك مثل هذا الشعور؟ أليس غريبًا أن يستطيع طعام أن يرفع رأسك من أعمق أجزاء الأرض إلى عنان السماء؟

هل كان صديقي عاشق الفطر سيصبح ثريًّا بمثل هذا الكتاب عن الفطر؟ كما قلت من قبل لم يخرج كتابه إلى النور. في السنوات الأولى والتي استمرت طويلًا كان يبدأ من جديد كل مرة ويكتشف الجديد. ساهم شغفه في نجاحه في مهنته. صحيح أنه كان يشعر في كل مرة بالثراء من شيء لم يكن معروفًا له حتى حينه. لكنه لم يصل إلى مرحلة جمع الثروة. لكنه تمكن من تحقيق حلم طالما تمناه. اشترى لنفسه غابة بعيدًا عن المدينة الكبيرة حيث كانت الأرض لا تزال أرضًا. غابة صغيرة تُكوّن نوعًا من جزيرة في منطقة هائلة من الحقول والمراعي. لا يجب أن تراودكم فكرة جزيرة بحرية. ذات مرة وهو في إحدى رحلاته الاستكشافية تسلل

إلى هذه القطعة من الغابة من خلال سياج كثيف طبيعي وكانت المشاعل ذات اللون الأصفر الضارب إلى الحمرة مشتعلة من حوله في كل مكان.. إنها الفطريات التي كانت تنمو ونحن في فترة الطفولة بين أشجار التنوب بالقرب من مرعى الماشية وكان يطلق عليها اسم «مخالب الدب»، ثم ماذا حدث؟ تحولت غاباته في أرض أخرى من مستعمرة للفطريات الجميلة إلى الفطريات الخبيثة حتى «الفطريات العسلية» التي لم تفترس مخالب الدب فقط بل افترست كل مخزون الأشجار في سنة واحدة.

بغض النظر عن الخسارة انتقل انتقالًا تدريجيًّا للغاية -قبل عثوره على الفطريات التي زاد عددها وأنواعها- إلى استخدام كلمة «اقتصاد» حيث قال: «مرحبًا، أيها الاقتصاد!» -»ها قد عاد الاقتصاد»- «كم أنت مزدهر اليوم أيها الاقتصاد!» لم يقتصر الأمر على الكلمة العفوية. حيث بدا له تصور أن مثل هذه الاكتشافات بتلك الكميات تدعو من تلقاء نفسها للبيع والتجارة والسوق وفقًا للطبيعة. ولهذا السبب فحسب تبدو مثل مرافعاته وبالنسبة لي مثل تأليفي للكتب بشكل أكثر بديهية. كان يكمن ذلك أيضًا في أن صديق قريتي السابق لم يعد سيد كنوزه مرة تلو الأخرى. كان هناك الكثير منها لدرجة أن أكله لها لم يقلل من عددها، ولم تكن زوجته وطفله لفترة طويلة بمقصد حسن مستهلكين ولا أي من الجيران على الرغم من أنه اعتقد أنهم زبائنه. ربما كان

ليسفر هذا الأمر عن علاقة جوار تبادلية كما كان يحدث في القرية سابقًا حسب ظنه، لكنها لم تعد موجودة في الواقع وليس لها أي أثر في المدن الواقعة في الضواحي. وهل كان يحمل ثرواته للسوق، للأسواق الأسبوعية وأسواق يوم الأحد؟ كان ينوي هذا الأمر حقًّا بل وكان يلح عليه وهو مرتدٍ ملابسه الإيطالية والبلقانية الأفغانية، ويمسك بسلة ثقيلة ممتلئة على آخرها بالفطر ويمضي في طريقه كعارض.. كبائع، خاصة أن بضاعته لا تقارن بغيرها، فقد كانت طازجة وشهية أكثر من كل الأشياء الباهتة التي يحيط بها الذباب والمكومة في حاويات بلا تهوية أو يتم جرها في عربات من مناطق بعيدة أو من بلدان أكثر بعدًا أو حتى من أبعد الأماكن على كوكب الأرض.

كان الكثير من بضاعته الشهية سلعًا بديهية ومرغوبة قبل قرن، لكن لم يعد ذلك هو الحال الآن وإذا حدث فيكون ذلك في أشكال السلع المستزرعة، تتحول إلى شكل أولي إلى فطريات نساها العالم كله تقريبًا، وربما نتوقع ذكر بعض الملاحظات عنها عندما يجيء الحديث عن الفطريات. لا يمكن عمل سوق بأرقى ثمار الأرض، خاصة في ما يطلق عليه وقت حاضر أو كما يُطلق عليه بلغة المحامين «تراجع العملاء أو لنقول سوق متراجعة».

علاوة على ذلك بدا له أنه لم يُخلق ليكون تاجرًا وموردًا للأسواق.

هل هذا يتعلق بفطرته كإنسان قروي غير مكتمل بداخله أو لا. لم يخلق للأسواق وليس صانعًا لها. ليس رجل سوق.

ذات مرة تجرأ على اصطحاب سلة مليئة بفطر البوليط إلى مطعم إيطالي -وهل إلي أي مكان آخر؟- حيث جلس مع زوجته لتناول طعام العشاء بدافع خفي. إذا وقعت عينا النادل السرديني على هذه المجموعة الفاخرة فربما يحدث شيء يجعله هو الضيف «نجم القضاء ذائع الصيت» أن يحظى بدور تاجر بسيط، عارض.. شخص تمكن من عرض الشيء بدقة وربما أفضل من غيره في مكان يطلب بضاعته. وحدث بالفعل هذا. صحيح ليس في شكل بيع وشراء، ولكن بشكل أفضل أو بشكل أكثر طبيعية عن المقايضة فربما لا تعادل زجاجتان من نبيذ إقليم أبروتسو أو سردينيا فطريات البوليط. ليس مجرد عاشق للفطر بل مشارك في اقتصاد المنتجات الطبيعية. شخص من عصر عتيق. عندما قدم لزوجته النبيذ الذي تم مقايضته بالفطر لتذوقه فكرت فيه -زوجها- بنظرة فتاة من القرية المجاورة التي لم يحظَ بها من فترة طويلة وحتى اليوم الحاضر لم يتذوقها أبدًا، لأنني أقترب من كتابة نهاية قصتي عن عاشق الفطر.

إذا لم يكن شغفه بعالم الفطر قد أثرى حياته المهنية في السنوات الأولى فحسب إلى جانب شيء آخر ثانوي وهو علاقته

بزوجته وطفله، (حيث قال لي ذات مرة إن «حبها -أي حب زوجتي- نوع من المرح») فقد صار الأمر على غير الشاكلة مع مرور الوقت بالنسبة له بشكل لم يلحظه هو نفسه، بل كانت زوجته هي من لاحظته أكثر. في الحقيقة دون أن يدرك أوشك على نسيانها بسبب شغفه، فقد تحول الشغف إلى إدمان.. إلى عبء، وفقدت زوجته روحها المرحة. هجرت بيتهما بين عشية وضحاها مصطحبة طفلها. هربت من الرجل ومن «الهدايا التي من المفترض أن تكون لها»، والتي يحضرها معه يوميًّا والمتزايد أعدادها في القبو وفي الجراج بل ولم تعد وحدها مكدسة هناك وأصابتها العفونة، هدايا.. كلمة كان ينطقها وكأنها كلمة تدليل.

هناك الكثير من حالات الهجر المشابهة عبر القرون لأسباب وبتلميحات متباينة مثل هروب تلك المرأة. وكان التلميح كافيًا هنا. فقط عاشق الفطر هو من لم يفهم هروب زوجته الحبيبة وكذلك غياب طفله الذي كان يحبه حبًّا مختلفًا. في اليوم التالي مباشرة استغل الساعة الشاغرة قبل رحلة الطيران لزيارة سجين في بلد بعيد، للذهاب بسرعة إلى الغابات وذلك عبر الطريق الذي صار اسمه «طريق الغياب» بعد فترة طويلة.

لكن قبل الرحيل بفترة طويلة كان سلوكه -بغض النظر عن أنه أهمل أسرته شيئًا فشيئًا- مختلفًا تمامًا وتغير موقفه خاصة تجاه

العالم الخارجي كلية. هذا ما كتبته لي زوجته التي كانت تتحمس بشدة لكل أحاديثه الطويلة ليلًا ونهارًا من قبل.

إذا كانت صورته عن نفسه أنه صار شخصية هامشية -بسبب صحوة شغفه- فقد صارت فيما بعد صورة من يلعب دورًا أساسيًّا في لعبة الحياة الشاملة بينما يلعب الآخرون أدوارًا مكملة متساوية. ورأى نفسه شخصًا كان يحمل الصولجان في زمنه، وهو شخصية ثانوية طفولية يستمع إلى صوت الرياح ويشاهد سقوط الأمطار وهبوب العواصف على أطراف الغابة. كيف هذا، هل كباحث عن الفطر؟ نعم، كباحث عن الفطر وجامع له وعالم به.

اتضح هذا في أن كل شيء آخر صار ثانويًّا أكثر فأكثر بالنسبة له، بل وصار كل شيء «ثانويًّا» أو ليس له وجود على الإطلاق. توقف عن القراءة باستثناء قراءة كتب الفطريات من نيوزيلندا عن سلاسل جبال الأطلس الكبير، وحتى المجلد الرائع بعنوان الفطريات في ألاسكا (The Mushrooms of Alaska) التي عُرفت فيها الفطريات، وليس هذا فحسب بل ولم يعد يريد الذهاب إلى السينما سواء مع فرد آخر أو بمفرده، ولم يقم بأي رحلة سواء بمفرده أو في صحبة اثنين، ومع مرور الوقت لم يعد يمارس مهنة المحاماة حتى بيده اليسرى.

لم يكن مدركًا لذلك التحول بالمرة ولم يقصده. كان يكفيه ما كان يجده في الصباح الباكر حيث اعتاد الذهاب إلى الغابات في الصباح الباكر، وتصور أنه أدى بذلك عمله اليومي بالفعل ولم يكن في حاجة إلى دراسة الملفات والمرافعات بإيقاعتها، كلمة كلمة وجملة جملة مع فترات التوقف والفقرات قبل يوم المحكمة. المحكمة؟ فقد كان البحث عن الفطريات هو العالم بالنسبة له. أما العمل بالمحاكم والدفاع عن المتهمين الذي كان يحبه ذات يوم لم يعد يعبأ به بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بل وصار من استأمنوه ووثقوا به في طي النسيان. فقد منحه البحث في غاباته -التي صارت «مناطق نفوذه» في تلك الأثناء- تصور أنه أتم ما كان يجب أن يفعله لمتهميه مثلما ينخدع آخرون مع سماع الموسيقى. قال إنه مع كل عملية اكتشاف للكنز كان يطلق سراح أحد المتهمين حيث ذاعت شهرة مرافعته في جميع أنحاء العالم.

الأسوأ أنه بدأ دون قصد أو إدراك في تحقير المسجونين والمتهمين الذين استأمنوه ووضعوا ثقتهم به. في السابق كان يراهم بشكل جميل لكن في تلك الآونة صار يراهم أكثر قبحًا لقاء بعد الآخر. صاروا مثيرين للمشاكل، لا وجود لهم، مكسورين وعالقين... صاروا موتى ظاهريًّا دون أفق ودون مستقبل ودون رؤية في حين أنه هو كان صاحب رؤية. كيف؟ فبفضل

الفطريات استثنى من مجال رؤيته من يدَّعون أنهم أصحاب رؤى. «بفضل فطريات الإينوكي وفطريات الأمانيت[29] وفطريات القيصر[30]» كما كتبت لي زوجته بمرارة التي يرجع أصلها إلى قريته المجاورة. إذا كان قد شعر من قبل أنه «خائن» في الغابات بسبب موكليه ومتهميه «عبيد من كل البلاد». فقد احتقرهم لمنزلة العبيد الذين يستحقون السجن.

الأسوأ أو لا، أو ربما سيئ على نحو مغاير أن احتقاره للمتهمين الذين استأمنوه على مصائرهم انتقل إلى الجالسين على المنصة تدريجيًّا دون فارق، ليس فقط كل القضاة (القضاة ليسوا فقط أنهم صاروا أكثر قسوة بل أغبياء.. أغبياء بشدة وكلما اقتربت منهم صاروا أكثر غباءً)، بل أيضًا للمترجمين الفوريين وممثلي الادعاء وممثلي الدفاع. لم يحترم سوى نفسه ولكن بعيدًا عن عمله الذي لم يعد مناسبًا له بعد الآن. زاد احترامه لنفسه أكثر فأكثر بل صار مختارًا. كان يوجد العديد من آثار أنواع لا تحصى من الفطريات المهروسة بين ملفاته.. أشكال تشبه أنظمة شمسية غريبة.

29- يحتوي جنس أمانيت على نحو 600 نوع من عيش الغراب ذوات الصفائح، بما في ذلك بعض من أكثر الأنواع السامة المعروفة والموجودة في العالم، وهذا النوع مسؤول عن نحو 95% من الوفيات الناتجة عن التسمم بهذا الفطر. ويتواجد في المناطق المعتدلة من نصف الأرض الشمالي. (الناشر)

30- يمتاز بأنه قابل للأكل، ويشتهر بطعمه وقيمته الغذائية العالية، قبعته قطرها 8 : 16 سم، والساق طولها 15 سم بقطر يصل إلى 3 سم. (الناشر)

لم تكن نيته سيئة عندما أمسك ذات مرة برداء المحاماة وسط مرافعة أحد خصومه، الذي طالب بعقوبة السجن مدى الحياة لمجموعة مسكينة من المتهمين ونسي نفسه والمحكمة وهو يفكر في الأشياء -تُرى ما هي؟- وأخذ يشم راحة يده. تداول الناس لفترة طويلة حكاية كيف أن عاشق الفطر ذات يوم -ولنقل في لحظة احتفالية خاصة في المحاكمة- عندما وقف الجميع لحظة النطق بالحكم هذه المرة، وكان يقصد بلا شك التلاعب بجدية المحكمة على الأقل، فقد وقف من مكانه في جانب الدفاع. عندما وضعت الهيئة القضائية الدولية بل والقارية المكونة من ثلاثة قضاة جالسين على طاولة القضاة قبعات البيريه على رؤوسهم في حركة واحدة، «وكأنهم رجل واحد» في إطار مراسم النطق بالعقوبة، وضع عاشق الفطر شيئًا مشابهًا فوق رأسه بيديه الاثنين بشكل متزامن. لم يكن هذا الشيء في الحقيقة سوى فطر بمظلة ضخمة من نوع فطريات الدعاميات المسامية (باللاتينية culumella iganta).

كان على الأشخاص الذين يوجه إليهم الدعوة إلى منزله -لم يكن عددهم بالقليل- أن يضعوا في حسبانهم مضايقتهم، منذ حلول المساء وحتى منتصف الليل بتعاويذ الفطريات وعبارات الثناء عليها وسميفونيات وقصائد وحكايات خرافية ومقطوعات

موسيقية (كانتاتا)[31] عن الفطريات، والتي كان يقصد بها أكثر حالة الثمالة المتزايدة لديه عامًا بعد الآخر أكثر من الأطعمة والمأكولات. في النهاية لم يعد لديه موضوع آخر. ولم يُسمح بذلك. فالفطريات كما لوحظ صارت المغامرة الأخيرة وكأن هو نبيها. كانوا يقفون في أكثر الأماكن الخلفية المتوارية، لا، بل كانوا هم الوحيدون الموجودون في الأفق. كان محور العالم يدور حولهم ومعهم الطقس الذي صار طقسًا مناسبًا للفطريات أو لا. وكانت أول فكرة تجول بخاطره في الصباح هي «الذهاب لغابة أو غابات. التوجه نحو عالم الفطريات». فكرته الأولى؟ صارت فكرته الوحيدة صيفًا وشتاءً على مر الزمن وطوال فصول العام. «فكرة»؟ كالمعتاد كان يروي في النهاية معي كمستمع طوال الليل والنهار عن مصدر وكأن الأمر يتعلق بشيء كبير ومهم. لم يتحدث على الإطلاق عن الكوارث اليومية المتراكمة عن تاريخ العالم. ولم يرغب في التوقف عن استحضاراته وهمهماته.

امتد الاحتقار لكل شيء لا يماثل كائناته، باستثناء أسرته التي نساها زوجي الحبيب.. كباحث عن الفطر رأى نفسه في الوقت نفسه حاميًا، وكلاهما صنعا منه سيد الغابات أو كما أراد أن يصف

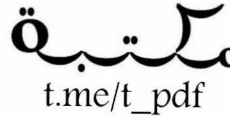
31- هي كلمة إيطالية تعني الفعل الماضي لكلمة غناء، وتدل على عمل غنائي درامي قصير. وهي صنف من التآليف الموسيقية الغربية يوضع لصوت واحد أو أصوات كثيرة، تكون مرفوقة بعزف آلات موسيقية. (الناشر)

نفسه في كتاب الفطر الذي لم يسطره «ابن الدروب»، وهي ترجمة لكلمة عربية وكانت تعني محاربًا، محاربًا في الحروب المقدسة. نعم، فقد خاض حربًا، كانت سرية في البداية ثم صارت علنية، وإن كانت بالكلمات فحسب ضد كل من لم يشبه كائناته. خاض حربًا بعيدًا عن الغابات وبداخلها أيضًا بشكل خاص. يا ويل اللاعبين أي الأطفال الذين يتصارعون بالبندقيات اللعبة ويقتلون بعضهما بعضًا بالأعيرة الزائفة.. هؤلاء الأطفال الذين كان ينظر إليهم في السابق أنهم حلفاء المستقبل إذا صلحت تربيتهم. كان يصيح قائلًا: «أيها الفاشلون، دعوا الغابات وشأنها» (وفي النهاية لم يقل هذا بهدوء). الخزي والعار على الباحثين الزائفين عن الكنز الذين استوطنوا الغابات ليصيبوها بالتصحر عامًا تلو الآخر، ليس فقط بالجاروف والمعول بل وبالعديد من عدادات جايجر دقيقة الصنع، وبحفر وثقوب أكثر عمقًا حول جذور الأشجار. الخزي والعار على قائدي الدراجات في الغابات الذين وسعوا كل شعب مخفي في الغابة بجرافات صناعية جرفوا بها الأرض الطبيعية والمسطحات الأرضية والتلال المتعرجة وكأن أكثر المناطق البرية في الغابة ليست سوى أرض ضموها إلى حيازتهم. كان يقول: «يجب أن تطلبوا العفو مني أيها الأوغاد، العفو مني أنا ابن الدروب».

روت لي زوجته كم كان يشعر بأنه بلا حول عندما يلقي عليه

طفل لاهٍ أو أحد المنتهكين للغابات التحية فجأة (لم يقابل أيًّا من الباحثين عن الكنوز المعدنية)، وكيف كان مبهورًا ذات مرة أثناء عودته، من الجلد المنعش والعيون اللامعة لأحد الرياضيين في الغابة في مقابل عينيه الباهتتين ووجنتيه الملتهبتين من شباك عناكب الغابة، ويحك جبينه كل مرة حتى تنزف بسبب الأفرع المتشعبة الحادة في مقابل سباقه بلا روية مع ما أطلق عليه «رغبة» أثناء طمعه في البحث، عند وخز قطعة خشب ميته مسننة موجودة عند جذع شجرة سنديان لزاوية عينه اليمني بالأمس واليسرى اليوم لتجعله بعين واحدة، مثل بعض أجداده، ولا يدين بالفضل سوى لملاكه الحارس -كما قالت- الذي كان يعني أيضًا في المنطقة التي يعود إليها أصلهما اسم الملاك المنذر: «انتبه صديقي في المرة التالية لن تجد حمايتي».

في النهاية حكت أنه دومًا ما كان يمضي في طريقه مرتديًا ملابسه الأنيقة ورابطة عنق محكمة الربط. وهل كان يعود متسخًا؟ قالت: مطلقًا، لا أثر لبقع على القماش الجبردين أو على أي شيء آخر. ولكن تمزقت البطانة الداخلية في الحلة التي اشتراها توًّا في أول نزهة له في الغابة، أو على أقصى تقدير في الجولة الثانية وعلى مدار الوقت تقطعت تمامًا، وفي آخر فترة قضيناها سويًّا تمزقت بالكامل.



بعد أن غادرت الزوجة والطفل -الذي لم يعد طفلًا- المنزل بفترة غير طويلة توقف عاشق الفطر عن أداء عمله كمحام، وبدأ يعمل على تأليف كتابه المتخصص عن الفطر لكن كما قلت «وكما لاحظت..»، فقد بدأت «أفظع فترة في حياتي» كما علمت قبل اختفائه بفترة قصيرة. ولأنه تم التعبير عن هذه الفترة وسط مجموعة من الإيحاءات والإشارات الأخرى وبواسطة أشياء أخرى، فيمكنني أن أختصرها في الحكاية على الرغم من أنها استمرت عامًا تلو الآخر، والتي يجب أن تكون مجرد إعادة سرد -فهي لا تخصني بأي حال- يلاحقني حتى الآن المصدر «الهوميري» الذي اشتكى منه الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشيدو[32] (AntonioMachado) بوصفه صورة إيقاعية ونغمة. لم تعد -كيف أقولها- هي المسؤولة عما سيأتي، أي لم يعد مكانها.

أكانت فترة فظيعة؟ نعم. وفي الوقت نفسه عايش في رحلة بحثه لحظته اليومية للنشوة. فكلاهما شريطة للآخر. حيث تظهر النشوة حتى عندما لا يجد شيئًا وهو أمر صار أكثر ندرة. وأمر مثل هذا كان يبرهن له كما يرى أنه إنسان حر. بل حسب قوله: «الأكثر حرية من الجميع. فأنتم الآخرون أنتم عبيدي. أنتم

32- شاعر إسباني من الحركة الأدبية الإسبانية المعروفة بجيل 98. ولد عام 1875 بإشبيليه، وتوفي في 1939 في كوليور بفرنسا هاربًا من حصار قوات فرانكو لمدريد أثناء الحرب الأهلية الإسبانية. (الناشر)

عبيدنا». من هم أمثاله؟ حسنًا. فالآن من دون وظيفة صار حرًّا حتى وهو يبحث عن أمثاله.. عن باحثين آخرين متخصصين وعن فاحصين ومدققين، صاروا من وجهة نظره آخر الناس مثله.

- على كلٍّ بدا الأمر أنه لم يعد حقيقيًّا كالسابق، حتى في البحث نفسه في الغابات أو في أي أماكن بحث أخرى. زاد عددهم وهم خائفون حتى خارج الغابات، لكن قلَّ عددهم في اللقاءات المرتبة والمؤتمرات السنوية لباحثي الفطريات أو «أصدقاء الفطريات» كما كانوا يطلقون على أنفسهم من جميع أنحاء العالم حيث شاركهم في أول عام. صار جليًّا أنه شعر بين من هم على شاكلته، أنه وسط أشخاص غير معروفين على نضد حانة كل مرة تقريبًا. لم يكونوا في حاجة لمشاهدة مبارة كرة قدم في التلفاز كي يتجاذبوا أطراف الحديث. فملحوظة صغيرة من أحد الغرباء عن الفطريات، أو عن نوع محدد -ومن الأفضل غير معروف- كانت كافية لحديث متداخل الأصوات بحماس هادئ بالنسبة للأماكن والمواسم وخاصة الفوارق والظلال، وكأن ليس في وسع أي مباراة كرة قدم سريعة أو حتى أي شيء آخر على الأرض أن يوقظهم مثلها.

هذا كل ما في الأمر. وعندما يشارك في ظروف حياة من هم على شاكلته فهم يجسدون -بخلاف عالم الفطر- نقيض الأحرار الذين

كان يبحث عنهم. ففي الحياة اليومية كانوا ينكشفون غالبًا كأتباع لزوجاتهم أو لأي شخص. كمرؤوسين، لذا لم يعد قادرًا على الحديث معهم كأتباع من أكثر الأنماط خضوعًا وخنوعًا وكأن رحلاتهم البحثية ليس إلا هواية أو مضيعة للوقت كأحد آلاف أشكال إضاعة الوقت المتاحة، وهو الأمر الذي كان واضحًا ومن الممكن سماعه في الحانات لكنه لم يكن صائبًا على الإطلاق. ربما كان لقاؤه بمن هم على شاكلته أقل وكذلك ظهوره في الاجتماعات، ولم يشارك على الإطلاق في المؤتمر العالمي لباحثي الفطريات. ولم يكن ثمة أي تلميح أو إشارة لأحرار بألسنة نيران أضرمها هواء العالم في جسد الباحثين كما كان يتصورهم في السابق. وكم غريبًا عدد باحثي الفطريات الذين يعانون أو يمرضون حتى ولو متظاهرين بالمرض. لم يرفع أحد رأسه طواعية وهو الأمر الطبيعي تقريبًا في المجال البحثي الخاص، إلا أن أناسًا منبطحين دومًا بظهور محنية وعيون منخفضة للأرض كانوا قادرين على التألق أمام سيد متسلط. أليس كذلك؟ سيد نفسه. لذا لا يحتاج المرء سوى أن يفتح فمه وأن يطلق العنان لصوته في المؤتمر أو لا؟ ولهذا الحد سادت «القيادة الأعلى» مثلما أدرك الشاعر الألماني جوته الروح، أليس كذلك؟ لكن لم يظهر صوت ولم يَسُد، لم يبق في أصوات المؤتمر أو المجمع سوى مسابقة معرفية لزعيم الفطريات أو زعماء مناهضين أو حتى في أكثر الجلسات احترامًا بعدها، حيث تمنى استعادة الصدفة الجميلة للمحادثات في الحانات. إنه الرجل

الذي أطلق على نفسه البارون من مملكة الفطريات. لم يشعر القليل من علماء الفطريات -المتقدم معظمهم في السن- بالتعب من بعد بضع خطوات في منتزه مقر المؤتمر، وحتى عندما ألقى أحدهم محاضرة عن نظرية البذور الثورية، كان يسري سعال هادئ منتظم بين صفوف المقاعد حيث كانوا يجلسون متباعدين بعضهم عن بعض حرفيًّا، كي لا يصابوا بالعدوى منه «كل هذا كان غير متصور في مرافعاتي بالمحكمة»، ولكن في النهاية في بعض الأحيان في نهاية حكايته كان هؤلاء الباحثون في مجال الفطريات أقرب إلى الخاسرين الفاشلين كما هو الحال اليوم. ولكن في الوقت نفسه كان كل فرد منهم طيب القلب ومتحمسًا في حد ذاته.

وعلى الرغم من ذلك لم يكونوا على شاكلته، فقد أدرك أنه لا مثيل له وهذا ما أقر به في نهاية حكايته التي أعرفها حتى هنا. لم يعد هناك من يماثل كبرياءه الفطري الذي تحول إلى غطرسة في فترة ما تمثل ذروة هوسه بالفطر.

زال الكبرياء واختفت الغطرسة، وعلى الرغم من ذلك شعر كأنه هو الباحث المتفرد الوحيد عن الكنز وصاحب الحق. السيد المتسلط الذي كان وظل حتى ولو في اللحظات التي تقلصت يوميًّا وبهتت في لمح البصر، والأسوأ أن النشوة صارت غير فاعلة.

والمقصود بالسيد: «مكاني أنا ودوائري ودواماتي ومداراتي البيضاوية. مكاني والمكان أنا. وغير مسموح لأحد أن يزعجني. تفضلًا، ابتعد عن نطاق بحثي. اغرب عن وجهي. ابتعدي أيتها الروح الحبيسة الذليلة». ولأنه حتى خلال وحدته كان حريصًا على مسألة السمعة والمظهر، اتضح هذا الأمر دون أن يكون مضطرًا للصراخ ببعض الشتائم والإهانات التي كانت على لسانه. (فقط لم يكن ينظف أظافر أصابعه من طين الغابة الذي توغل بين أظافره وهو مرتدٍ حلة الرجل الشهير ذائع الصيت عالميًّا).

طلب ألا يزعجه أحد وكأنه بدأ عملًا صعبًا وحتميًّا، ولا يمكن تأجيله لصالح البشرية. ومن يعرقل هذا العمل فتنطلق حسرة دائمة لأجل الصالح العام الذي يدور حوله هو شخصيًّا. نعم، فترة غريبة أو مخيفة. حتى في لحظات نشوته كان يشعر بالخوف.. خوف شخص كأنه متخصص في علم الهندسة يملك وحده كل زمان الأرض بواسطة حركاته الهندسية والمدارية وسط الغابة، بل ويوضح أيضًا بمكر أنه لم يعد هناك وقت -زال الوقت- أي نفد الوقت. «ملعون أنت، أيها المنير الزائف!».

هذا ما حدث واستمر يوميًّا في النهاية. كل مرة كانت نشوته بالبحث والاكتشاف مهددة بالتحول إلى نوبة فزع. عاش هذا الأمر كتقليد جميل في البداية يطمئن القلب والعقل ثم يتحول

-دون أن يلاحظ- إلى فزع وجمود ليصير عادة غريبة متجاوزة لشخصه. كلما زاد ما كان يعثر عليه (وكان مع مرور كل يوم يجد أكثر ويثق في قدراته كمكتشف) يظهر الشيء المرعب في تقلص المكان أمام بحثه المتسع والممتد ليصير مجموعة من النقاط، بل نقطة هنا ونقطة هناك. عندما كان يتم عملية البحث في المكان المحيط كان يؤدي العثور وخاصة بكميات هائلة إلى تقلص المكان المحيط. كم كانت عمليات العثور الفردية جميلة وحسنة. لم يعد المكان مكانًا بعد الآن.. أي انتهى الشعور بالمكان. في فترة ما تلاعب بنظره إلى قمم الأشجار وتيجانها.. إلى «السماء».. إلى أكثر الآفاق بعدًا. تلاعب بالمكان وأضاعه لأن مثل هذه النظرات القصيرة للغاية التي اعتادها لم تتحول إلى مشاهدة. وتوقف عنها قبل أن تصبح عادة، وعاد إلى النظر الفاحص والتدقيق ناحية الأرض. تحول من سيد الجنوب والشمال والشرق إلى عبد النقاط. نعم، عبد. هذا ما صار عليه.

ومع هذا المكان الضائع -أكان جزءًا من قاعدة الكون؟- اقترب ضيق الزمن اليومي، الذي تحول إلى مأزق زمني ثم إلى وقت غير مناسب. غريب: لم يكن نمطه عن أزمة الوقت -أي «تثبيته للزمن» كما كان يطلق عليه- ناجمًا عن أنه لم يكن لديه وقت، بل لأن خسارته البالغة للمكان نابعة من خسارته لقدره ومكانته. والغريب أيضًا أن ما كان يحميه من نوبة الفزع أحيانًا -أي العالم

الخارجي الذي صار مذعورًا- كان هو الطبيعة المذعورة. عندما تتداخل الأزمنة والأمكنة بسبب رياح عاتية أو عواصف في داخله بل خارجه، في الخارج. عايش هذا كله كلعبة مختلفة تمامًا.. كحركة مضادة مريحة لشعوذته وتصنعاته الداخلية وسط سقوط الأفرع وخلال تحليق الطيور الخائفة. كان يشعر بالأمان وسط أصوات الرعد. كان ينظر ويتفحص ويدقق ناحية الجوانب وناحية الجذور بل كان جزء منها منتميًا للأماكن المتداخلة في العالم والأزمنة المذعورة. وجد الهدوء المحمود وشعر بمخاوف كبيرة حتى عندما يلامسه فرع متهاوٍ أو تصيبه لمحة برق بفزع مباغت. لكن بعد أن ارتعدت فرائسة بثانية واحدة رأى رؤية أكثر حدة وما رآه لم يكن كالسابق.. مجرد نقطة محاطة بمظهر. كيف عاد له إدراكه بالمكان في بريّة العالم المذعور. كيف صار مكتشفًا وهو تائه.

ما حماه في بعض الأحيان من وعيه المتزايد بالوقت غير المناسب على نحو متناقض أو غير متناقض، هو بعض الفترات القصيرة التي كان يواصل فيها البحث. حيث لم يتمكن من فعل شيء آخر ولم يجد شيئًا. بينما زاد غضبه مع كل ساعات البحث إلا أن هذا الغضب قد ساعده في البقاء في الزمن أو في «العالم الحاضر» كما أطلق على ذلك بنفسه. وخاصة بعد يوم العبث بيدين فارغتين وحقائب خاوية حيث لم يعد هناك شيء ليبحث

عنه. هذا ما حدث في الواقع. إلى العراء «كان عدم العثور على أي شيء هو الغرابة الكبيرة والتي صارت أكبر مرة تلو الأخرى. البحث وعدم العثور على شيء». وجد ذلك كنوع من المثالية، لكن كيف كانت الممارسة؟ لم يكن ثمة شيء قابل للتحقيق على الأقل من طرف عاشق الفطر ومن شخص لا مثيل له.

سألت نفسي ما الذي جعله في مجتمعات المهووسين والحمقى حالة استثنائية؟ ربما لأنه صار نسخة معدلة من ويليام شكسبير، من مهووس بالفطر إلى مهووس بالوعي، بمعنى «أن الإدراك والوعي حولنا جميعًا إلى مهووسين». لذا بدت العشوائية والحرية وقدرية الأحداث أحد مثله العليا. لكنه كان واعيًا دومًا بشكل مرعب بل ومخيف بكل لحظة وبكل شيء يفعله بدلًا من أن يدع الشيء الذي فشل في صنعه يحدث، بدلًا من أن يتركه. أسفر هوسه بالوعي عن مرضه بالزمن، فقد ظن أنه قد برأ من هوسه بالفطريات في حين اندلعت أزمته مع الزمن بطريقة أكثر تهديدًا في النهاية. حسنًا «سيتضح هذا في النهاية!» ترى ما هو أكثر أنماط هوسه بالوعي حدة؟ تظاهر بعدم البحث كي يعثر على شيء سرًّا.

لعن نفسه ولعن الفطريات مع اقترابه من حالة الفزع. إن كان لديه عينان لشيء فللفطر فحسب. وازداد هوسه لما هو

أكثر من الفطريات وإن لم يكن لها الشكل الكلاسيكي للفطر. فقد كان يرى المداخن ذات الزوايا الأربع الصغيرة على أسطح المنازل المجاورة فطرًا، حتى عندما نظر إلى التمثال الذي يعود إلى آلاف السنين للملوك الثلاثة من بلاد الشرق، الذين قدموا عطاياهم للمسيح وجد في أيديهم فطرًا بدلًا من الذهب والبخور وشجر المر. رأى النجوم في جوف الليل في شكل فطر. وفي عالم الأحلام نمت الفطريات في جسمه، ليست الأنواع المعتادة المزمنة التي تتسبب في أضرار للصحة بل فطريات الغابة الأكثر بحثًا وطلبًا وألذها مذاقًا. حتى في الغابات نفسها وفي المراعي التي تتزايد بها كميات الفطريات، كان يلتبس عليه كل ما يحيط به من أوراق وروث الأبقار والتوت والأزهار. بل واتخذت الأحجار وروث الكلاب والمناديل الورقية وعلب السجائر الفارغة وريش الطيور والمعلبات والخوذات الصدئة وأوعية طعام الجنود والألغام التي بطل مفعولها أشكال الفطريات (التي كان ينحني لجمعها).

أوشك أن ينسى وجوه الآخرين.. الناس.. البشر أمام أشكال الفطر المحددة داخل رأسه وخارجه، الأمر الذي وصل إلى ذروته ذات مرة وأطلق عليه اسم «الثالث الواضح». روت لي زوجته التي ابتعدت عنه منذ وقت طويل أنه قابلها ذات مرة في الغابة ونظر في البداية إلى ما تحمله في يديها. تُرى ماذا كان؟ فطر القيصر (amanita caesarea) بلون صفار البيض، ولا يمكن أن

يكون هناك لون أصفر براق مثله داخل قشرة بلون زلال البيض.. «طعام سماوي حقيقي». ماذا؟ هل صارت هي الأخرى عاشقة للفطر؟ نعم، بشكل استثنائي في اللعبة ربما كي تستعيد العاشق الأساسي.. زوجها. لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ في الحقيقة رفع بصره من على فطر القيصر ونظر إلى وجهها.. إلى وجه زوجته، لكنه لم يعرفها وأعجب بها كامرأة غريبة ليس بسبب جمالها بل بسبب ما عثرت عليه.

وبدأ مع بزوغ أول خيط من خيوط الفجر يسمع حفيف أوراق الأشجار وصخبها المحبب لنفسه الذي كان في حاجة ماسة إليه وهو طفل.. أدركه كهمس وحديث غير مفهوم وهمهمة تنذر بالشؤم وإلهام شرير. تهمس الأفرع التي يحتك بعضها ببعض أثناء هبوب الرياح. حتى عندما وقع بين أجمل وأحب أنواع الفطر إلى قلبه كانت بالنسبة له مجرد «أشياء».. أشياء مرعبة! منتجات الجحيم! كم كانت هذه الأشياء باردة، بل باردة كالثلج وهو يمسكها بيده ولم تكن الدماء الساخنة للغاية أن تدفئها، بل بالعكس انتقلت برودتها إليه وصعدت لذراعه حتى تسللت برودتها الشديدة إلى قلبه. وهو أمر لم يمنعه من مساعدة مجموعة من الجوّالة التي ضلت طريقها في الغابة. كان عدد التائهين يزداد ولكن لأنه كان خبيرًا بالمكان رحب بمن قابلهم في طريقه كأول فرد حتى ولو لم يحتَج إلى تحديد ملامح الوجه. لم يمنعه ذلك من ناحية أخرى

من التعجب من أن كبار المتجولين في الغابة في القرون السابقة، كبار مثله الآن مثل الشاعر الأمريكي والت وايتمان[33] والكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثور[34] -اقتصر تفكيره على أمريكا فقط- لم يثنوا على بعض الفطريات في أشعارهم أو حتى يذكروها في كتاباتهم.

«والت، لماذا استخدمت بعض الأشجار لأغراض اللياقة البدنية فحسب؟ لاستعادة اللياقة بعد إصابتك بسكتة دماغية؟ هنري، لماذا حددت فقط النباتات في غابات ولايتي مين وماساتشوستس؟ أكانوا شعوبًا مثل الشعوب الهندية والعربية التي كانت تنمو بها الفطريات بالقرب من الحمامات فقط، أم كانت محرمة مثل لحم الخنزير ومطرودة مثلًا من حدائق الفردوس؟».

هل أراد صديقي عاشق الفطر أن يتخلص من ازدواجية الحب والكراهية، عندما جاب لبضعة أشهر الصحاري والكثبان الرملية الموجودة في الكرة الأرضية؟ لا أعرف. ما أعرفه أنه بدأ بالقرب من جبل طارق واليمن في رمال الصحراء والكثبان بالقرب من الواحات، في البحث عن الفطريات التي تبرز له متوافقة مع

33- أحد أهم شعراء أمريكا وأكثرهم تأثيرًا في القرن التاسع عشر. ومجموعاته الشعرية شكلت إحدى العلامات الفارقة في الأدب الأمريكي. وأشهر أعماله «أوراق العشب». (الناشر)

34- كاتب مقالات وشاعر وفيلسوف أمريكي. اشتهر بسبب كتابه «الحياة في الغابة» وهو انعكاس للحياة البسيطة في الطبيعة. (الناشر)

الرمال والأرض ومرتبطة به. في المناطق المتوسطة الأوروبية التي هرب إليها بعيدًا عن الفطريات كان يبحث عنها على سفح الكاتدرائيات وفي الاستادات -أو قل كما تشاء- حتى في جولاته بالقارب وفي الأنهار وبين قضبان قطارات الأنفاق وفي أكثر المقابر المقفرة على الأقل، أو يحدث انجذاب ناحيتهم بعيدًا عن كل شيء آخر، وأحيانًا صار هو نفسه للأسف في خرسانة غير مرئية بعد لحظة عابرة من النشوة. قبل عملية جراحية بسيطة بساعة وقف عند النافذة في المشفى ونظر نظرة عابرة إلى تاج الشجرة القابعة أمام النافذة، ثم أخذ يستكشف أسفل الجذور بشكل أكثر إلحاحًا وفي الوقت نفسه أكثر اشمئزازًا، لكن عن ماذا كان يبحث؟

كثيرًا ما كان يستمع لسيل من الإهانات للأشياء التي كان يبحث عنها. مثل «وحوش. كائنات مقززة. كائنات هجين. أكثر المخلوقات المتحللة. أصل كل الآفات». وكان أسوأ الإهانات في نظره: «فصول حكاية خرافية -ديدان. فرّامات ورق متنكرة في ثوب ذات الرداء الأحمر- جعيدان بآلاف الأسماء الزائفة. حيث كان يقصد باسم «جعيدان» أكثر الأشياء المزيفة في الكون». «تسللوا! الرحمة!».

لأنه لم يكن ثمة سبيل للهروب من أحبائه في أي مكان على ظهر الأرض، من الجزيرة الكبرى لأرض النار في أقصى جنوب

القارة الأمريكية وحتى سيبريا، تمكن من العودة للبيت والحديقة بالقرب من المدينة الكبيرة، إلى الغابات التي يعرفها جيدًا. كان بديهيًّا أو كما أفهم أنه لم يعد ينجذب إليها بعفوية بل من دون إرادته، لا، يندفع إليها وتصطاده مباشرة. كانت عبارة «إلى عالم الفطريات معك، بسرعة!» هي أول فكرة، لا، بل أول الأمور الملحة عليه عند الاستيقاظ قبل بزوغ نور الصباح.

وعلى هذه الشاكلة مر فصل الصيف وفصل الخريف وحلّ فصل الشتاء. بين عشية وضحاها تساقطت أول ندفات الثلج الذي ازداد سمكه أكثر فأكثر طيلة اليوم. لم يمنع سقوط الثلج عاشق الفطر أبدًا من المضي في طريقه يوميًّا ليبدأ رحلة البحث، بل جعله أكثر طمعًا على الرغم من إحساسه بالكآبة الناجم عن إدراكه للذنب وتحقير الذات. زاد حماسه بالنظر إلى طبقة الثلج التي وصلت إلى ركبتيه. لم يكن ثمة حديث عن كلمة «بالنظر إلى». وأيضًا لأول مرة في حياته كانت ندفات الثلج الموجودة على جبينه تربت عليه أكثر من أن توخزه: مستحيل، لم يعد هناك أي شيء.

وكما كان في الغابة في أعماق الثلج جاب بكومة من عصا البحث. ضرب فجأة بيدين عاريتين، وبالقدمين يسارًا ويمينًا مثل لاعب كرة قدم. لم يجد سوى أوراق مبللة ميتة بألوان متعددة لأشجار الخريف. تلك الأوراق التي بدت أسفل الطبقة ناصعة

البياض. وبفضل الخبرة التي اكتسبها لسنوات طويلة أن كائناته تستطيع البقاء في الشتاء في شهر ديسمبر وحتى يناير أسفل الثلوج الذي حماها من الصقيع. وضع في حسبانه العثور على ما يطلق عليه «فطر أبواق الموتى» على وجه الخصوص -اسم زائف مرة أخرى حيث كانت تظهر هذه الفطريات بلون رمادي يميل إلى السواد المفعم بالحيوية- في صحبة أقاربها الذين كانوا بدورهم لهم أشكال تشبه الأبواق الصغيرة ولكنها بألوان صفراء فاتحة أو داكنة، والتي غيّر اسمها كعادته من اسمها الدارج إلى «فراشات الأرض» وفي الوقت الذي لم يكن هناك أسماء تدليل لتلك الأشياء أطلق عليها اسم فراشات الأرض الصغيرة. عرف من الصيدلي من حي تاكسهام بمدية زالتسبورج الذي يختلف عن كثير من الصيادلة في وقتنا الحالي، بسبب معرفته الأكبر عن الفطريات عن غيره أن هذا النوع من «فطر الشانتريل[35] على شكل أبواق» يكتسب مذاقًا طيبًا بعد الصقيع الأول.

وكيف حدث ذلك؛ كان في اليوم السابق لاختفائه أي قبل اختفائه من على سطح الأرض. لساعات طوال أخذ يقلب في الثلوج بلا جدوى. الأمر الذي قد يدفع شخصًا ثالثًا للاعتقاد بأن مناطق الغابات التي جابها صديقي، قد انتهكها آخرون ونبشها باحثون

35- معروف بالشانتريل الذهبي، وهو عبارة عن فطر لونه برتقالي أو أصفر، ويتشابه كثيرًا جدًّا مع بعض الفطريات السامة لذا يجب توخي الحذر أثناء البحث عنه. (الناشر)

آليون ومميكنون عن الكنز أو ربما دهسها قطيع من الخنازير البرية. من حسن حظه أو لسوء حظه توقف سقوط الثلوج لتظهر له أجنحة بلون بني يميل إلى الاصفرار لفراشة أرضية صغيرة وحيدة، من حفرة في الثلج نما إلى أذنه اسم تدليلها في لحظة الاكتشاف. ثم بزغ اللون الأصفر لساقها الصغير في الشمس. أين يوجد بريق مثل هذا في العالم بأسره أكثر ترحابًا به؟

ومن منطلق الخبرة لسنوات طويلة أيضًا عرف عاشق الفطر أنه بعد بحث لنصف يوم ومثلما بدت في النهاية الفراشة الأولى والوحيدة وهي «ترفرف» من أعماق الأوراق المدفونة في الأرض والتي كانت ساكنة بهدوء في المكان، سيجد لا محالة حوله ليس فقط فطريات فردية بل مئات كاملة من الفراشات الأرضية الشهية التي لا مثيل لها من كل أنواع الفطريات تقريبًا، وكأنها مجموعات شجيرية مضغوطة في شكل عناقيد ومستعمرات.. ذيل مخفي مثل شكل هندسي داخل أخاديد التربة وتشققاتها يمتد بين الأشجار بوفرة لدرجة أنه عند جمعه أو فتحه (حيث أدركه كمقطوعات متناغمة من أعمال الموسيقار الأمريكي جون كيج[36] والموسيقار الإيطالي دومينيكو سكارلاتي[37]) وحصاده

36- ملحن أمريكي وصاحب نظريات موسيقية ويعتبر رائدًا في الموسيقى الكهرسمعية والاستخدام غير التقليدي للآلات الموسيقية. ولد عام 1912 وتوفي في 1992. (الناشر)

37- مؤلف موسيقي إيطالي، اشتهر بمعزوفاته على آلة الكلافسن، وكتب أكثر من 600 قطعة سوناتا لآلته المفضلة. ولد عام 1685 وتوفي في 1757. (الناشر)

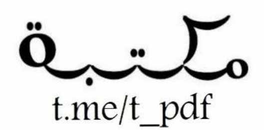
تصور وجود حوض سري في أعماق الغابة، تخيل وجود مزرعة خفية سرية بداخله.

حدث في ذاك اليوم أن أحواض فراشات الأرض كانت منتشرة وممتدة بعرض الغابة، حيث انكشفت أسفل الثلوج وامتدت المزرعة بلا نهاية. وصار المحصول أوفر ساعة تلو الأخرى وأثقل وزنًا في أوعية الجمع وفي الحقائب وحقيبة الظهر، الأمر الذي تطلب استمرار انحنائه وحصاده للمحصول. في أثناء ذلك صار الذيل الأصفر نحيلًا أكثر، وتمزق لخطوة أو اثنتين، ثم عاد ليرفرف ويتلألأ في الخطوة الثانية من جديد. عندئذٍ نهض ونصب قامته أخيرًا وتمكن من العودة بالأغراض التي حصل عليها للبيت. لنخرج من الغابة! لكنه لم يستطع. امتد الذيل الأصفر واستمر في جذبه. لم يتمكن من الخروج بل لم يسمح له. وحوش، حثالة، غوغاء، لم يسمحوا له، التوت والفطريات والأحواض والحقول وامتدت ذيول الفطر وتعاريجها والتفت واهتزت مثل ذيول الفئران وضربت بذيول التنانين وألقت أربطة تجاهه دون هوادة.. دون رحمة.

حل الظلام وساد ليل شهر ديسمبر مباشرة دون أن يحل المساء. أخذ يقلب أكثر الأجزاء السفلية للغابة لأعلى لاعنًا ومتضرعًا. عاد باكيًا متذمرًا وشاكيًا وكأنه «عامل جمع المحصول قسرًا» (لغة

رمزية من فترة عمله محاميًا)، أخذ يقلبها تحت ضوء الثلج في البداية ثم بواسطة مصباح الرأس الذي كان يحمله معه في كل تحركاته بالغابات منذ أن تحول شغفه إلى إدمان. «أنا، هل أنا الصياد؟» بل أنا من تمكنت الفطريات من اصطياده! (العودة ثانية للغته الرمزية).

ثم ماذا حدث؟ هل حدث اندلاع تام للاكتئاب وضرب رأسه بزمجرة أو في صمت في جذع شجرة على حافة أكثر حفر القنابل عمقًا؟ «حادث كبير» آخر؟ أم أخذ ينبش الثلج المتجمد بالكامل حتى وصل إلى نفايات الأوراق في الأسفل وهو يغمغم ويغني -كما لم يحدث من قبل- على أرضية الحفرة؟ لا شيء كان مماثلًا لهذا. ومثلما حدث في حكاية حبقوق أحد أنبياء العهد القديم حين جُذب من رأسه -أرأيت ذلك؟- وحُمل لمكان آخر تمامًا. تُرى من حمله؟ لا أعرف. تخيلوا هذا بمفردكم. ربما هو من حمل نفسه. ربما.



من أخبرني بكل شيء حدث في سنواته الأخيرة قبل اختفائه، عن العام الأخير واليوم الأخير؟ هو شخصيًّا، صديق طفولتي الذي صار فيما بعد عاشقًا بالفطر أو حتى مهووسًا به.

كان يراودني إحساس أنه كان في طريقه إليَّ. منحني الصحبة منذ بضعة أيام أو صرنا نحن الاثنين في صحبة بعضنا بعد عام كامل من ابتعاده. ومن خلال ظهوره سالمًا طاف قدر يسير من البهجة في قصتي وقصته الذي من دونه لن يكتب لحكي الخروج إلى العلانية -حيث مكانه الطبيعي- وكأن استدعاه شخص آخر غيري.

كانت بداية شهر ديسمبر حتى ولو لم يتساقط الثلج. ذات مساء بينما كنت جالسًا مستغرقًا في حكايته في منزلي النائي إلى حد ما الذي كان عبارة عن مبيت ومكان لتغيير عربات الحنطور أو حدوات الخيول، في الطبيعة الخاوية من البشر في الماضي بين باريس وبوفيه، اقترب صديقي القديم في الشارع الصغير الذي يسير به القليلون صباحًا ومساءً فقط. عرفته ربما لأنني كنت منتظره بطريقة أو بأخرى.. ربما لأن حاسة سمعي صارت أكثر حدة لخطواته بسبب الفعل المركز. صديق قديم؟ مشي صبي. طفل تقريبًا، مثل خطوات قفز الأطفال التي من الممكن سماعها

والتي كانت أكثر أنواع الموسيقى المحببة لي.

نهضت من على الطاولة التي كنت أجلس عليها لكتابة نهاية حكايته. فتحت له -قبل أن يطرق الباب أو ينادي- باب سور الحديقة المزدان بالصدف المجمع من السهوب القريبة والتي يعود تاريخها إلى العصور القديمة. ذلك الباب الذي وضعت عليه رقم المنزل (لم يكن من الممكن وضع رقم أكثر من ثلاثة أو أربعة أعداد في منطقتنا) ودخل -دون أي آثار للمفاجأة من مثل هذا الاستقبال- إلى حديقتي «الفقيرة»، اقتباس بتصرف من قصائد فرجيل الرعوية. كان ينقص أن تضع له شمعة على النافذة لقدومه في الليل! هذا ما فعلته في الليالي السابقة، واستقبلته بكل حفاوة وترحاب. هذا ما كان.

على الجزء المؤدي إلى المنزل الذي كان عبارة عن سقيفة من الحجر ترجع لقرون طوال تردد -متجاوزًا حد الأدب- لذا كان لدي الفرصة لأن أتركه يؤثر عليّ. كنت صاحب ملكة التدقيق في التفاصيل، في تفاصيل أخرى تختلف عنه. لاحظت أن أظافر أصابعه لم تعد سوداء بل منمقة ونظيفة كما هو الحال لمن هم على شاكلته الذين يظهرون للرأي العام. كانت جبهته ووجنتاه سليمتين وليس بهما أي آثار لخدوش أو آثار دماء التي كان يتعرض لها يوميًا أثناء فترة هوسه بالغابة. كان معتنيًا بنفسه

عن الفترة السابقة ويتضح هذا من أناقة حلته التي من الواضح أنه اشتراها مؤخرًا، وكان ينظر بفخر (ostentatious) وثقة (pronounced) (كلمات أجنبية كالتي كان يجب استخدامها في مرافعاته) بمستوى البصر دون أن يحيد بصره تجاه الأرض أو إلى الجانب. كان يبدو أنه لا يخشى شيئًا، وفي الوقت نفسه كان ابنه المفقود يبرق في زوايا عينيه كالمعتاد.

تحدثنا في الأمسية الأولى فقط عن فترة هوسه بالفطر. أصر على المبيت في هذا البناء الصغير الذي كان مخزنًا للمعدات في السابق، كان صغيرًا للغاية لحصان لارتداء الحدوة حيث كان يقف نصف الحصان في العراء. أليس كذلك؟ ولتهدئته رويت له أنه لا يوجد أي فطر في المنطقة المقفرة بأسرها. فخلال السنوات الثلاث الأخيرة التي أعيشها هنا على الأقل لم أكتشف فطرًا صالحًا للطعام أو جديرًا بالبحث عنه، والسبب الأساسي هو الجير والجبس الذي لا يناسب المخلوقات النبيلة الراقية، كما أن أرضية الغابات الجزرية الصغيرة المسكينة وسط السهوب القاحلة لا تتكون سوى من الردم والرمال والحصى. انظر إلى تراب الحفر غير الكثيف التي يصنعها حيوان الخلد والتي لا يوجد بها أي حبة صغيرة لطين أرض الغابة السوداء.. انسياب ميت على أقصى تقدير. لا تجد سوى طين بلا أكسجين وبلون أصفر باهت وبه أجزاء مجسمة في الأرض. ولا يمكن أن تجد سوى فطر

نفاث مليء بالمسام على أقصى تقدير متناثرًا هنا وهناك. لكن في داخلها لا تجد سوى تراب أسود وبني في بداية الشتاء على أقصى تقدير (لست في حاجة بأي حال أن أعلمك بهذا الأمر).

من الواضح أن الصديق لم يكن في حاجة إلى كلماتي المطمئنة له، بل تجاوز سمعها. ولم أفشِ له أيضًا أنني كنت أجلس (وأمشي) وأكتب حكايته. كان واضحًا له على كل حال أنه يجب الصمت عن موضوع عملي (ولعبتي) قال لي: «يكفيني أن أعرف أنك تجلس على الطاولة ومن بعيد من نهاية الحديقة أراك هناك بالقرب من النافذة». ثم أضاف: «هذا يفعله شخص (لم يقل أفعله) على نحو جيد». بدا أنه أعاد الحاجة للإلهاء عن موضوعي في الاستفسار منه يوم وصوله عن حاله وعن فطرياته، علاوة على ذلك كان يرى أنه هو والفطريات غير جدير بأن يكتب عنهما حكاية وحتى كتاب «بقلمي». ذات مرة رأيت -لا يعد هذا جزءًا من الموضوع هنا- كيف أدار كتابًا عن الفطريات عند المرور في البيت كي يخفي الغلاف. تخيلته يلقي الكتاب في نيران المدخنة، أو يزيد من سعير النيران بأوراق ممزقة ومقطعة لأجزاء صغيرة.

في مساء آخر استنتج أمام النيران كتاب ضد الفطر، نعم كتاب ضد الغابة بمفهومه. البحث عن الفطريات بل البحث بوجه عام يسمح لمجال البصر أن يتجمع ليصبح نقطة بصر محددة.

نظرة؟ انعدام النظر. لكن ماذا فعلت العينان الناظرتان للأرض بالنسبة لرأس عنيد وكيف تحولت العينان إلى الكآبة. أصابهما مرض المياه البيضاء (كاتاركت) وهو أحد أمراض الباحثين! كم تحول من ضيف منير على هذه الأرض إلى شخص كئيب! صارت الغابات وهواؤها سيئة على الدوام وغير صحية بشدة وضاغطة على الرئة. تبعث أبخرة خبيثة. في النهاية لا تبعث إلا الخبث بوجه عام. انتقل إيقاع الحركات الحمقاء للجامعين عندما ينتهون من أداء «خطوات البحث» إلى القلب مثل عدم انتظام لضرباته. يتسم الجامعون بوجه عام بما يلي: يجوبون المسارات أكثر فأكثر كمنتهكين، من منطلق الطمع والطمع يعني السرقة. نعم، كل الجامعين المتواضعين للغاية. كان يثني على نفسه وعلى الصيادين الذين يركعون على الأقل في الأوقات المقدسة خشية من الرب. انظر إلى راعيهم. انظر إلى هذه الغابات.. هذه الغابات اللعينة كيف تصدر أصواتها وصخبها.

بينما كنت أعكف على كتابة حكايته طوال اليوم، كان يذهب للحديقة الخلفية حيث كان يظل هناك دون أن يصدر أي صوت تقريبًا وكان يجرف الأوراق، أو يجمع الأفرع اليابسة من أشجار التفاح العتيقة كي يستخدمها في إشعال النيران في المدخنة في المساء. لم يتسخ أبدًا وهو يفعل ذلك ولا حتى أساور قميصه. أوضحت له أيضًا الأماكن التي من الممكن أن يجد فيها بيوت

الحلزون والقواقع العائمة في تلاطم الأمواج، والموجودة قبل قرون داخل الحقول التي حرثت كثيرًا قبل الشتاء في منطقة السهوب. من المدهش أنه حتى أصغر حلزون كان ثقيلًا في اليد وكان يعود كل مرة بالعديد من الأشكال الأجمل، أكثر من التي حالفني الحظ ووجدتها على مر السنين التي قضيتها في المنطقة. كان يعود بحقائب مليئة بوردات المسك التي كان يعد منها مربى حمراء اللون بلون وردات المسك ليس لها مثيل، كان يعود أيامًا أخرى بحقائب مليئة بالبندق الذي كان يقدمه محمصًا على العشاء مع بطاطس لا يوجد أكبر منها تعود إلى جزيرة أتلانتيك Noirmoutier، كما كان يعد سلطة من الحماض البستاني والجرجير الذي ينمو عند نهير Troësne (أي التمر حنة)، الواقع أسفل في السهل على سفح الهضبة التي يوجد على حافتها كما قلنا كوخ صغير لتغيير حدوات الخيول. كان يبهرني حقًّا بخروج كل هذه الأشياء -حتى الكستناء الحلو القليل- من جيوبه وأكمامه وجوارب سيقان بنطاله وكأنه ساحر. كان لا يتحدث عن الرغبة في السحر والفتنة. وبدلًا من البحث تجاه الأرض كان يحدد الأشياء الواقعة في مستوى بصره، وفي مقدمتها الشجيرات الفضية البادية المزدانة داخليًّا للغابات الصغيرة الشتوية، وكأنه في احتياج للزخارف والأشياء الملفوفة والحلزونية والمخططة والمنقطة والدائرية! علاوة على هذا وبغض النظر عما سبق كنت أجد حذائي لامعًا ونظيفًا كل صباح وبوتي المطاط مغسولًا، بل

كان يلمع صديقي أرضية المنزل الحجرية بزيت الزيتون كل ثلاثة أيام ليصبح لها بريق ولمعان مختلف.

بعد أداء عملي وقبل ظلام ديسمبر المبكر، كنا نتوجه يوميًّا نحن الاثنين للتجول في البيئة المحيطة ولكن كل منا في اتجاه غير الآخر ثم نعود للمنزل بعد أن يحل الظلام. بدا لي أن كوكبة الجبَّار تسير أسرع من اتجاه الشرق إلى اتجاه الجنوب ثم نحو الغرب خلال سماء الشتاء عن السنوات السابقة. أيرجع هذا إلى التقدم في العمر؟ في جزء من نهر Troësne الذي يشبه القناة تسبح فئران عملاقة كأجسام سوداء، التي هي في الحقيقة نوع خاص من فئران الأنهار ولا نعرف سبب تسميتها باسم فئران «شيلينية»، التي كان يعلم بوجودها الصائد المنتظر على جسر القناة حيث كان يصنع منها طبق الراغو المميز. أمام ظلال حصانين عريضين وبسيقان قصيرة على المرج الليلي تخيلنا أننا نمتطي ظهريهما دون سرج كما كنا نفعل في القرية سابقًا على ظهور خيول الحقل ذات الظهر العريض والسيقان القصيرة، حيث كنا نركبها من نهاية قرية لأخرى. ورأينا على مرج آخر ثورًا ضخمًا وكأنه مكون من عضلة ضخمة وحيدة من حوافره وحتى بالقرب من قرنيه وجلده بلون أبيض، عصي على الظلام أن يخفيه، وخصيتاه أسفل بطنه وكأنهما ثمار قرع الكالاباش الضخمة. فجأة أحدث ذيل نجمة خطًّا بعرض السماء للحظة وكأن

عود ثقاب قد احتك بسور أو أشعله بطل غربي أو أي شخص. كما بدت السحب الصافية من أفق لآخر مثل آثار عجلات جرار. وكانت الأرانب البرية لا تزال تقفز من حفرة لأخرى وسط البراري داخل عشب فترة ما قبل حلول فصل الشتاء.

ذات مساء كنا نتجول تجاه قرية بعيدة ووقفنا هناك في الحانة مع اثنين أو ثلاثة آخرين، كانوا هم نفس الأشخاص منذ سنوات، ولاحظ صديقي صاحب النظرة الفاحصة للملابس كيف تظهر «ثنايا واضحة في ملابس المهجورين»، لكنني لم أفصح أنه هو نفسه بدا لي للحظات كمهجور أثناء هذه الأيام. كيف ظهر ذلك؟ بأنه هو من كان صاحب الشخصية المنسجمة بيننا نحن الاثنين صار فجأة غير ماهر وأصابه الضعف والوهن، كان يقع على الأرض دومًا ما كان يمسكه في يديه. كيف هذا؟ دون ساعة كان يعرف الوقت بالضبط في كل مرة حتى وهو نائم وحتى الدقيقة، وأينما تتضح الأرقام في منظم حرارة وعداد السرعة في السيارة كان يقرأ هذه الأعداد كأنها بيان للزمن كأنها زمن حقيقي حالي. ذات مرة وقبل ذلك الوقت بفترة طويلة أخبرني أنه من دواعي فخره أنه يملك وقتًا لأنه عرف معنى ألا تملك وقتًا. لم يبرأ تمامًا من أزمة الزمن الأصلية التي يعاني منها ومن ملله السيئ حتى اليوم.

جاء يوم عيد ميلاده وكي أحتفل به مع صديقي أخذت إجازة من العمل وتوجهنا للسير في الشوارع والقرى والحقول والغابات. «هذا ليس اجتيازًا» -(هذا ما قلته أنا) «هذا اجتياز بكل تأكيد». (هذا ما قاله هو)- ثم قرى وشوارع حتى وقت العشاء في دار ضيافة خلف تل الهضبة الذي كان اسمه -صدق أو لا تصدق- L'Auberge du Saint Graal «ملاذ الكأس المقدسة» (تم تغيير اسمه في تلك الأثناء ويطلق عليه اليوم اسم دار ضيافة كما كان في السابق).

مضينا في طريقنا قبل شروق الشمس بفترة طويلة.. شروق اليوم الذي كان يعرف أنه يوم ميلاده حيث ولد في تمام الثامنة صباحًا وثلاثة وثلاثين دقيقة. بدت حدود السحب في الطرف الشرقي والجنوبي من الهضبة بلون ذهبي. صاح صبي عيد الميلاد العجوز «يا للمجد!» هبت رياح دافئة إلى حد ما تجاهنا أثناء عبورنا الحقول حيث قال صديقي عن ذلك إنها تهب من ناحية اليمن، من الجنة. ظهرت عربة زرقاء مغطاة بقماش بلون زرقة السماء في نهاية طريق الأشجار. كان الشخص الذي كنت أتجول معه لمدة يوم يشبه ريتشارد وايدمارك الخالد الخجول والمتكبر للغاية أكثر من أي وقت آخر. وأنا شريكه في فيلم «Two Rode Together». أمر يبدو جميلًا. أمر كان ليبدو جميلًا. لكن في كل مرة كنت آخذ شريكي على محمل الجد. محمل الجد مثل

جيمس ستيورات أو خصمه. شريك؟ الموضوع؟ موضوعه؟ موضوعنا؟ مغامرتنا المشتركة. وما سمعته في الوقت نفسه من الشخص الذي كان على جانبي؟ «أمر غريب. يشبه الضوء الذي كان وقت دفن المعتوهة العذراء».

لم نتجول ناهيك عن أننا كنا نسير بخطوة منتظمة. كنا نمشي بتثاقل. قال: «أخيرًا أمشي بتثاقل مرة أخرى». وسمعت الصوت المنتظم الصادر عن مشينا بتثاقل.. خاصة صوت الأوراق مثل صوت دهس قطار بطيء للغاية ولا يتقدم بسرعته الكاملة. أحسنت التشبيه! تذكرت الجملة التي قالها الجميع عن مقالاتي: «مثل قطار اللبن البطيء في الصباح الباكر». وواصلنا المشي بتثاقل. موسيقى المشي ببطء.. موسيقى سير قافلة أخرى.

عندما ضاق الطريق لمرورنا نحن الاثنين سويًّا كان يتقدم صديقي في خطاه، فرأيت ظهره مليئًا بنبات الأرقطيون[38] الذي التصق بالعناقيد والمستعمرات وبي أنا أيضًا. كان يلتف بين الحين والآخر ويحكي لي بعض الأجزاء غير المعروفة من حكايته مثل شيء تجاوزه منذ زمن طويل. فمثلما تنكر بعض الفدائيين في الحرب العالمية الثانية في هيئة باحثين عن الفطريات تنكر

38- هو نوع من الأعشاب تنتمي إلى العائلة النجمية، ولها فوائد طبية كبيرة منها تنظيم مستويات سكر الدم، وإدرار البول، وتحسين صحة الجلد، والوقاية من مرض السرطان. (الناشر)

هو ذات مرة بالعكس في شخصية فدائي للغابة كي يجد ما كان يحرص عليه. ذات مرة رسم خريطة بمصادر الكنز في المنطقة بأكملها كميراث أو وصية لطفله. فجأة وبنظرة من فوق كتفه التي كانت ناحية الفراغ أكثر من نظره تجاهي صاح قائلًا: «ما هذا الحظ الذي منيت به طوال حياتي! وكم خدعت نفسي بمرارة تارة وبشكل جميل تارة أخرى. خداع جميل!» علاوة على ذلك دهس فطرًا نفاثًا قديم ومليئًا بالمسام عند حد المرعى لدرجة خروج الدخان البني الداكن من الفطر كحد متحرك قبل الدخول إلى الشتاء.

صارت السماء ملبدة بالغيوم وقت الظهيرة تقريبًا وصار الجو أكثر برودة وهبت الرياح قادمة من ناحية الشمال. بعد قبر «آرثر تيتو» الموضوع بين الشجيرات في طريق الصعود لأعلى التل، في هذا الاتجاه بين باريس والبحر القريب من بلدة دييب الفرنسية، بدأ تساقط المطر الذي ضربنا في وجهينا بعد فترة قصيرة كوابل من البرد ولكننا لم نعبأ كثيرًا بذلك، «نعبأ» -كما صاح صديق قريتي وهو يلتفت بجسمه- «نحن أبناء الجبال». قبل ذلك عبرنا قرية تدعى Chavençonالواقعة في السهل الممتد ووقفنا نحن الاثنين على جانب طريق القرية على ميزان الجسر الذي خرج من الخدمة منذ فترة طويلة، لم يعد هناك أسواق للماشية. وأخذنا نتأرجح ونتأرجح ثم أخذنا نهتز مرارًا وتكرارًا، ولم نرغب في

مواصلة السير ولو لفترة قصيرة.

فيما بعد في فترة ما بعد الظهيرة حيث ظهرت الشمس من جديد وسكنت حركة الرياح وظهر من الزرقة لون أزرق، ومن سكون السحب تكاثفت السحب ومن الخضرة الأخيرة خضار منعش وعلى نصف ارتفاع أعلى التل، وقبل الغابة الكبيرة الوحيدة في المنطقة عبرنا مرعى للأبقار، وحظينا بمشاهدة عفوية للفطريات المراسمية السامة والحوريات الجبلية الخطيرة وفطريات الغاريقون الخطرة[39] التي عرفت عنها أنها تنمو طوال السنة وحتى أواخر ديسمبر في شكل دوائر شيطانية. حسنًا، لقد أصابني صديقي بعدوى هوسه بالفطر لفترة من الزمن ورأيت الحوريات بالفعل مثل عقد الحبل الدائرية، وبسرعة توجهت جانبًا وتصرفت وكأنني مضيت في الطريق الخطأ وقال هو: «هل نحن في الزمن؟ وأجبته «نحن في الزمن أخيرًا». في الحقيقة كان يقف في المرعى حصانان من خيول الحقل. تأرجحنا فوقيهما كما كنا نفعل في فترة طفولتنا في القرية لمسافة قصيرة فحسب، لكنها كانت كافية لأن نحول حصاني الحقل إلى فرسي سباق يهتزان ويصهلان ويتشممان، ماذا؟ وللحظة تحول أحد الحصانين إلى حمار أخذ يئن ويرفس بينما ينهق زميله بصوت مماثل.

39- فطريات الغاريقون هو جنس من الفطريات، يضم أنواعًا صالحة للأكل وأخرى سامة. ويتكون هذا الجنس من الفطر من أكثر من 300 نوع موزع على أنحاء العالم. (الناشر)

بعد ذلك وخلال الغابة الكبيرة وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء كانت توجد أشجار السنديان والكاستناء الحلو والزان بدلًا من المجموعة الشجيرية المعهودة في المنطقة. حسنًا، أهذا ما تم تصوره؟ نعم هذا ما تم تصوره. وممن؟ مني. تصورت. حلمت حلم يقظة. قصدته. كان يوجد مثل هذا القدر.

صارت السماء ملبدة بالغيوم مرة أخرى من حافة الغابة، وبدأ تساقط الثلج لأول مرة في العام بهدوء وبكثافة كما يحدث دومًا في أول مرة منذ زمن بعيد. «أو ربما لآخر مرة؟» (هو مرة أخرى) فجأة ساد العالم الأبيض الجديد القديم، وذهب صبي عيد الميلاد على الرغم من أنه كان في إمكاننا البقاء في طريق عريض ونحن متوجهون إلى دار المبيت الواقع على السفح المقابل لأعلى التل وخلفي -وأنا أخطو خطوات متثاقلة، حرفيًّا خطواتنا ثقلية- لم تعد خطواتنا المتثاقلة مثل حركة مقطورة متثاقلة بل قرقرة. لا تختلف عن صياح وصياح مقابل لغرابين، الذي تحول إلى نعيق غراب وحيد على حافة الغابة. توقف الآخر الخلفي أمام الأشجار المتأرجحة بفعل رياح الثلوج. وسمعته يقول لنفسه: «البقاء وسط أصوات الأشجار وداخل الحدث. وأعلى في التيجان حيث حركة النسيج وقماش النسيج في آن واحد. لماذا لم أبق في أطراف الغابة؟!» أضيف لها هدر كبير في الحافة وطقطقة

الأفرع من دون أوراق مثل ظُلة. كانت توجد حمامة زاجلة ميتة عند أقدامنا يبدو أنها سقطت من السماء بسبب الثلوج المتساقطة ووقعت في حفرة وكانت هناك رسالة حول ساقها، لكننا لم نرغب في معرفتها.

صعدنا لأعلى الجبل ثم دخلنا الغابات وحدث ما كان يجب أن يحدث وكما تصورت إذا قبلنا. وممن؟ انظر لأعلى. ثلج أبيض كثيف بشكل موحد في كل مكان على يسار الطريق ويمينه. صدقت النشرة الجوية. وظهر شكل في موضع ما أكثر وضوحًا. شيء مستلق بشكل مسطح على الأرض، ربما كان لغمًا. لكن شيئًا بهذا الشكل لا يكون مستلقيًا بل واقف منتصب. صاح عاشق الفطر: «يا صاح، يا أنت!» كما تصورت. (كزميل مهووس لفترة من الوقت عرفت المكان. لكن هل عرفت أيضًا أن فطر بوليط ينمو في الشتاء الماضي)؟ لا، خلافًا لما تصورت تراجع بضع خطوات للوراء ثم قال: «أنت الشخص المناسب لي!» وتوجه ناحية الشكل الدائري بل كان سيره أقرب لخطة.. ببطء في شكل دوائر وحلزونيات ومسارات بيضاوية.

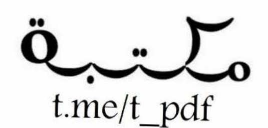
لكن في النهاية لم يحدث ما كان يجب أن يحدث. ربما شيء واحد توقعته وحلمت به وقصدته هو ما تم كما يقول الإلهام. ففي اللحظة الأخيرة قبل أن ينحني العاشق أو يا إلهي! يركع

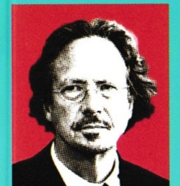
على ركبته. يركع في الثلج! ظهر شخص في المشهد ولاقاه. شخص؟ شخص رفيع المستوى. امرأة. المرأة الوحيدة التي طلبها أو تمناها شخص لعيد ميلاده. وقفت أمامه وكأنها في أفق بعيد للغاية. لكن نفس هذا الأفق وهذه المرة لم ينظر للشيء في ذراعها بل إلى وجهها وتعرف عليها مرة أخرى. في السابق كان يرى نفسه منقذها. أو مكملها. لكن ماذا عن الوقت الراهن؟ صار الوضع معكوسًا الآن. هل خطا ناحيتها؟ لا. على الرغم من أن المسافة التي كانت بينهما لم تتجاوز خطوتين أو ثلاثًا أو أربعًا على الأكثر، سار بل انطلق عدوًا ناحيتها. فقط الأطفال هم من سبق وأن رأيتهم يفعلون هذا من وضعية الوقوف مرة ناحية الأب ومرة ناحية الأم أو ناحية شخص ما. لو كنا في الصيف لازدان قطار التل بشجيرات عنب الأحراج. لكن ماذا عن الوقت الراهن؟ توقف الزمن على تل عنب الأحراج.

بسعادة ورضا تناول الثلاثة العشاء في دار ضيافة Auberge du Saint Graal في قرية Grisy-le-Plâtre الواقعة على المنحدر المقابل لسلسة التلال. معنى كلمة Plâtre «جبس». عنوان الدار: ميدان الشمس المشرقة (Place du Soleil Levant) تناولناها كمقبلات، خمنوا أولاً ماذا كانت. ووسط الوجبة انضم إلينا نحن الثلاثة فرد رابع فجأة. أيها الشاب! أيها العالم الشاب!

لكن أليست هذه نهاية قصة خيالية؟ ربما: في القصة الخرافية شُفي. لكن في الواقع.... لكن يقول الإلهام عن ذلك أو أي شيء أو أي شخص: الخرافي في هذه الحالة هو أكثر الأشياء الواقعية والضرورية. إذا كانت عناصر الكون الأربعة هي الهواء والماء والأرض والنار. فإن لحظة الخيال هي العنصر الخامس، العنصر الإضافي. فبالنسبة لحكاية -على الأقل حكاية من عالم الفطريات- فإن الخيال مع كل النميمة السامة اليومية وكل أيام الأمطار السامة صيفًا وخريفًا وكل الاتصالات الهاتفية لكل مراكز السموم الدولية وفي كل المطابخ السامة التي لا تهدأ أبدًا، وفي النهاية كما يقال كان هذا هو مكانه المناسب..

خمنا الوقت في الساعة اللاحقة لوجودنا في دار ضيافة Auberge du Saint Graal. وأخطأنا نحن الأربعة. لكن من كان أكثرنا خطأ في تقدير الوقت، كان هو.





"سأحكي حكيًا غير متسلسل عن كتابه عن الفطريات الذي لم يكتبه...".

هي حكاية عن صديق -عاشق للفطر- اختفى فجأة دون أن يدون كتابه الذي كان يحلم به. لكنه كان يحكي لصديقه (بيتر هاندكه) كل ما كان يدور بباله، وكل خبراته ومغامراته في بحثه واستكشافه لأنواع نادرة من الفطر؛ والذي قضى حياته يقتفي أثره في كل مكان.

"لم يُسطر كتاب الفطر أبدًا، لكنه حكى لي مع مرور الوقت بعض الأشياء التي كان يجب أن تُذكر فيه".

هكذا يحكي (هاندكه) بين سطور هذ الكتاب، بأسلوبه المميز، وبنظرته الفلسفية للحياة.. يأخذنا في رحلة عميقة ممتعة، للتعرف على أنواع الفطر المختلفة والغريبة وأماكن تواجدها وطرق جمعها.. مسترشدًا في ذلك بشغف وخطوات صديقه الذي رحل/ اختفى فجأة دون أن يتمكن من إتمام حلمه.

بيتر هاندكه: كاتب وروائي ومسرحي ومترجم نمساوي، ولد عام 1942، وفاز بجائزة نوبل للآداب 2019.

انطلقت شهرته عام 1966 مع نشر روايته الأولى، وأصبح نجمًا في الأوساط الأدبية المتحدثة بالألمانية مع نجاح مسرحياته خلال ستينيات القرن العشرين.

فاز هاندكه بالعديد من الجوائز الكبرى وأثار الجدل في العديد من المواقف والأوقات، وعلى مدى سنوات طويلة ظل يذهل محبي الأدب بأعماله التي تبرع في تصوير المشاعر الإنسانية وتبدع في مقاربة مكنونات العقول والقلوب.




ISBN 978-977-821-209-9
9 789778 212099